العظم

الثقافة العربية

370.956
A99tA

مطبوعات التمدن الاسلامي بدمشق

A S

الثقافة العربية

بحوث في تاريخ الثقافة العربية ومراحلها وازدهارها
وآثارها وفهارسها ونهضتها

تأليف

احمد مظهر العظمه

رئيس تحرير التمدن الاسلامي ، وعضو لجنة التربية والتعليم بوزارة المعارف

Cat. Sept. 1951

77521

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم .
والصلاة والسلام على الرسول العربي الأمي سيدنا محمد الذي أخرج الناس من الظلمات الى النور وعلى آله وأصحابه واخوانه المرسلين .

وبعد فهذه مقالات في نواح شتى من الثقافة العربية تبياناً، والاسلامية نسباً وأوطاناً ، خصصت بها مجلتي المعلم العربي التي تصدر عن وزارة المعارف ، والتمدن الاسلامي التي تصدر عن جمعيتها ، فكان مما نشرته هذه وتلك في عامنا هذا ما جعلت منه هذا الكتاب الذي يهدي الى جوانب من ثقافتنا، ويبدي بعض مآثرها وفضلها على الناس في القديم والحديث ، بعد ان شغل الناس بالغرب عن الشرق مصدر النور .

والله سبحانه أسأل أن يتقبله تقبلاً حسناً ويلفت به قلوب الشباب الى مجدنا العلمي العظيم الذي جحده كثير منهم فظلموه ظلماً مبيناً .

❀ ❀ ❀

ولقد اعتاد المؤلفون أن يهدوا كتبهم الى عظيم أو عزيز يختارونه فرأيت أن أهدي كتابي هذا الى إمام في ثقافة العروبة والاسلام حفظاً وفقهاً وفلسفة وطباً وقضاء ، وهو أبو الوليد محمد ... ابن رشد القرطبي الأندلسي (ت ٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م) الذي يعرفه الافرنج (باسم A. verroès) معرفة علم من أعلام نهضة الفكر الذين نريد لنهضتنا العلمية اليوم أمثالهم .

١٣٦٨/١٢/٣٠ ، ١٩٤٩/١٠/٢٢

احمد مظهر العظمة

الثقافة العربية قبل الاسلام

من الواجب التفريق بين البدويين والحضريين من العرب حين الكلام على شيء من أحوالهم التي تبدي حضارتهم ، وإذ كانت الثقافة من أعظم مظاهر الحضارة ، فانا نستعين بها على تصور حال الثقافة العربية . فلا شك أن أهل الحضر كانوا على قسط من الحضارة وإن لم نقف عليه كله — وقد أوردنا بعدُ شيئاً من ذلك — وأنهم كانوا على تفاوت فيه بينهم ، ويدعي أن قريشاً في الحجاز مثلا وعرب اليمن والشام والعراق يختلفون عن البداة ثقافة وحضارة ، ولذلك عنى ابن خلدون البدويين بمثل قوله (وهم أبعد الناس عن العلوم) و (عن الصنائع ، والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها) (١) ، (فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافيَ القدر ، فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ، ويعدونه لذلك ، والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ، ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه) (٢) .

ولعل من الحق مع ذلك أن ننصف هؤلاء فنقول إن حالهم هذه إنما كانت في الفترة التي تقدمت هدي الاسلام ، والمرجح أنها لم تكن كذلك مع حضارتهم في أعماق التاريخ ، ومن الأدلة على حضارتهم التي بين أيدينا لغتُهم ، وهي من الجمال الصقيل على غناها بألفاظ لا يمكن أن تكون وليدة شظف الفقر ومهامه القفر ، وفي القرآن الكريم إشارة إلى جاهلية أولى ، قال تعالى : « ولا تبرّجنَ تبرج الجاهلية الأولى » (٣) — وإن كانت في المدن — قد لايكون من المغالاة جعلها في بيئة تلائم الحضارة بلينها ويسرها ، وفيه أنباء عن شعوب عربية

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩

(٢) ص ١٢٥

(٣) سورة الأحزاب ٣٣

دبّ إليها الانحلال فدمرت تدميراً ، فضلاً عن أنباء بيئة لا تزال معروفة بنضارتها وخصبها ، وفي التوراة أيضاً نحو من ذلك كله . (١)

ومن أعجب ما وقفت عليه في بعض كتب التاريخ أن خالد بن الوليد لما فتح الحيرة خرج ابن قبيصة من القصر الأبيض وعمرو بن عبدالمسيح بن بقيلة ـ وكان معمراً ـ فقال له خالد : كم أتى عليك ؟ قال : مئو سنين — قيل إن عمره كان أربعمئة سنة — قال : فما أعجب مارأيت ؟ قال رأيت القرى منظومة مابين دمشق والحيرة تخرج المرأة فلا تتزود إلا رغيفاً (٢)

وإذا ذكرنا ثورات الرمال المتمردة الآن في الصحراء وبعض المدن وقفنا على شيء مما أتى على هذه النضرة والنعيم وهما غير بعيد من صدر الاسلام .

أما العهود القديمة لبلاد الظلال والجلال العربية ، فقد عنى بها المنقبون في حفرياتهم ، فكشف النقاب عن تدمر لأول مرة على يد الانكليزيين (هـ : وأوكينز ، و . وود H. Davukinz R. Wood) سنة ١٧٥١م ، واستطاع بوركارت السويسري Bucrhhart سنة ١٨١٢ أن يخترق أخدود (سيك) في وادي موسى ويطل على المدينة الصخرية الحمراء : بطراء ، كما تسلل سنة ١٨٤٣ م (آرنو) الفرنسي حتى حرم بلقيس وأطلال مأرب ، وجاس فرنسي آخر هو (دوسو) منطقة حوران وكشف عن القصور المغمورة في أطراف الصحراء ، وكشف الحيرة أيضاً . (٣) ، ولقد حقّ للمؤرخين لما وقفوا عليه من براهين وأشباه براهين أن يشيدوا بذكر الحضارة العربية القديمة في مواطنها ، وحسبنا أن نورد من ذلك شذرات ما دام البحث فيها نفسها غير مقصود الآن :

قال العليم غوستاف لوبون : وصف هيرودتس ، قبل المسيح بنحو أربعمئة سنة ، بلاد العرب السعيدة بأنها من أغنى بقاع العالم ، وأنه كان في مأرب أو سبأ قصور نضرة ذات أبواب عسجدية وآنية من ذهب وفضة وسرر مرصعة بالجواهر .

ولم يرو استرابون غير ما رواه هيرودتس ، وقد استند في روايته عن مدينة مأرب إلى

---

(١) تجد موجزاً عن الدول العربية القديمة في (الاسلام والحضارة العربية) للأستاذ محمد كردعلي ص ١١٢ — ١١٤ .

(٢) الفتوحات الاسلامية لابن دحلان ص ١٦

(٣) معالم الحضارات للأستاذين أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ص ٩٤ .

أرتيميدور فقال : إن قصورها ذات سقوف ذهبية عاجية مرصعة بالحجارة الكريمة . وذات أثاث فاخر وآنية ثمينة . ورأى أراتوستين أن بيوتها تشابه بيوت مصر .

وهناك مطابقة بين ماجاء في تواريخ العرب ومارواه أولئك المؤلفون . وقد أجمع مؤرخو العرب على امتداح غنى اليمن ، فاسمع ما قاله المسعودي حين تكلم على مأرب :

وذكر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأعدقها وأشهرها جناناً وغيطاناً وأفسحها مروجاً ، بين بنيان وجسر معتمر وشجر موصوف ومساكب للماء متكائفة وأنهار متفرقة ، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجد على هذه الحال وفي العرض مثل ذلك . وأن الراكب والمار كان يسير في تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لا يرى جهة الشمس ولا يفارقه الظل ، لاستتار الأرض بالعمارة والشجر ، واستيلائها عليها وإحاطتها بها ، فكان أهلها في أطيب عيش وأرفهه وأهنأ حال وأرغده الخ ..

وبعد أن أنهى غوستاف لوبون قول المسعودي تكلم على قيمة سد مأرب ، وعلى أن العرب كانوا واسطة بين قدماء الأوروبيين والشرق الأقصى ، وعلى استعانتهم بالفينيقيين قال : وكان العرب والبابليون يتنافسون في الاتجار مع الهند ... ثم قال : وقد تحدثنا عن الحيرة التي مجدها العرب فقلنا إنها كانت تنافس القسطنطينية وعاصمة الفرس ، ولم نقل عنها أهمية مملكة غسان التي أسسها عرب اليمن بعد ظهور المسيح بقليل ودام سلطانها نحو خمسمئة سنة ... إلى أن قال : ومهما تكن الآثار التي ألمعنا إليها آنفاً قليلة فانها مما تنم به روايات قدماء المؤلفين ، ومما نبصر من خلاله ازدهار حضارة العرب الغابرة التي تنتظر من يكشف عنها .(١)

وقال الأستاذ كارل بروكلمان :

و(في جنوبي بلاد العرب حيث كان المناخ أكثر ملاءمة للزراعة ازدهرت منذ الألف الثاني قبل الميلاد حضارة راقية قامت على أساس الزراعة والتجارة . وفي الحق إن السدود المنشأة لخزن المياه وتصريفها ، والمدن المحصنة ، والقصور والهياكل القائمة في تلك الأصقاع لا تزال إلى اليوم تشهد بما كان يتمتع به بناتها من الصناعة الزاهرة ، وما كانوا يتحلون به من

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ١٠٤ — ١٠٩ ، وفي كتابنا (حضارتنا) شذرات من مثل ما روينا .

التقوى والنزعة الاجتماعية .) [1] ثم أشار إلى حياتهم الفكرية ثم إلى المعينيين والسبئيين .

وقال عن حضارة الأنباط :

(ولا تزال آثار سلع الهامة والكتابات المختلفة التي نقشت على قبورها المنحوتة في الصخر شاهدة إلى اليوم بما كان لها من حضارة زاهية) [2] .

وقال عن حضارة تدمر :

(وكانت تدمر التي خلفت دولة الأنباط أسعد حظاً من سابقتها ، وكانت السيادة فيها للعرب ..) [3]

ولعل في هذه الشذرات ما يلهمنا أنه كان في نواح من الجزيرة العربية قبل الاسلام بزمن قريب وبعيد حضارة وكان فيها تبعاً لذلك ثقافة ، أتى على أكثر معالمها الزمان .

رد توهم : من المزاعم التي نرى في هذه المناسبة الاشارة إلى بطلانها ظن بعض من كتبوا في التاريخ أن المؤرخين المسلمين القدامى هم أول من وأد تلك الحضارات العربية القديمة اكتفاء منهم بتاريخ العرب بعد الاسلام وخضوعاً للنظرية الدينية ، وبسبب تباعد العصور وقلة المصادر والأخبار واعتمادها على الرواية [4] . مع أنه لا مصلحة الدين في ذلك كما يزعمون وليس له نظرية في هذا الصدد إلا ما كان من محاربة الوثنية ، ولو جعلوا العذر قلة المصادر والأخبار وانصراف المؤرخين إلى أمور أخرى ، لكان خيراً ، فهذا صاحب بلوغ الأرب) ينقل عن كتب عربية فيقول مثلاً : (كان في اليمن حصون كثيرة ، ومساكن عامرة ، وقصور عجيبة فاخرة منها قصر غمدان الذي كان بصنعاء وهو قصر عجيب فاخر أسسه ـ كما في كتاب نشر المحاسن اليمانية ـ أزال بن قحطان بأمر أخيه يعرب ، بناه عشرين

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ج ١ ص ١٣ و ١٤ تعريب الأستاذين نبيه فارس ومنير البعلبكي .

(٢) ص ٢٠

(٣) ص ٢١

(٤) (معالم الحضارات) للأستاذين أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ص ٩٣ ، وأغرب مما أوردنا قولها : ... فظهر أن للعرب ماضياً قبل الاسلام لا يقل في الروعة والقيمة عما بعده (ص ٩٤) !

طبقة (١) بعشرين سقفاً بين كل سقفين عشرين ذراعاً ، وجعل فيه مئة مسكن ، وكان أعلى غرفه ممرداً بالقوارير الخ ..) (٢) ومثل هذه الأنباء في كتب التاريخ كثير .

قال الأمير شكيب أرسلان رحمه الله في مقدمته للنقد التحليلي للأستاذ محمد أحمد الغمراوي :

« لا مصلحة للاسلام في تعفية آثار ما سبقه »

... ليس بضروري لاعلاء كلمة الاسلام أن يلتزم المسلمون تعفية كل أثر من آثار الديانات التي سبقته وأن لا يبقي لها ذكراً ولا عنها خبراً ؛ بل مما يزيد في بيان فضل الاسلام وإظهار طَوله وقوته أن يعلم الناس أن قد سبقته أديان عريقة وملل طويلة عريضة عميقة ، وأنه جاء هو ضعيفاً فما زال يقوى ويتمكن بحول الله حتى اقتلع تلك الأديان من جذورها ولم يبق لها أثراً في جزيرة العرب ...

« القرآن ملآن بذكر الديانات السابقة وأخبارها »

كيف يكون الاسلام تعمد طمس ذكر الأديان السابقة على حين أن القرآن المجيد الذي هو مشرق الاسلام وينبوع الايمان ملآن بذكر هذه الأديان السابقة وأخبارها وسيرها ، ريان بتعظيم أنبيائها وتكفير من خالفهم ، وهو لا يفتأ يخاطب بني إسرائيل ويذكر نوحاً وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى إلى عيسى بن مريم ، وهناك التعظيم الأعظم ... الخ (٣)

نعود بعد هذا فنقول : أخذت بحوث الباحثين تتنبأ بشيء من أحوال ماض للجزيرة بعيد تستند إليه عهود الحضارات التي أشرنا إليها ، ومنهم المؤرخ الايتالي كايتاني caetani الذي وقف على حجج أثرية ترجع إلى ماقبل نيف وعشرة آلاف سنة تثبت أن جزيرة العرب لم تكن بلاقع بل كانت تجري فيها الأنهار وتميس الرياض والغابات ، وتقوم المدن والقرى الآهلة

(١) يروي المؤلف رواية أخرى منها أن طبقاته سبع ، وبانيه شرحبيل بن عمرو ... وروايات أخرى تذكر بُناة له غير هذين ، ومنها أن ما بين كل سقفين في سبع طبقات أربعون ذراعاً .

(٢) النقد التحليلي ص يو — يز .

(٣) بلوغ الأرب للمرحوم الأستاذ محمد شكري الآلوسي ص ٢٠٤

بآلاف الآلاف من العرب وتمتد بينها القوافل تحمل المال الوافر . (١)

نذكر هذا فنجزم بوجود حضارة وثقافة عربيتين قديمتين ، ونرجع النظر إلى ما قبل الاسلام فلا نكاد نجد في غير اللغة وما إليها ما يؤيد ثقافة العرب وحضارتهم القديمة ، فاذا أردنا دليلاً من العمران في مثل الحجاز فأعظم عمارة لهم الكعبة وهي في مركز مدني لا بدوي ولا تدل مع ذلك على ضرب في حضارة أو في علم . و (أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام قصي بن كلاب وسقفها بخشب الدَّوْم وجريد النخل ... ثم بناها قريش بعده ورسول الله (ص) ابن خمس وعشرين سنة وشهد بناءَها) (٢) .

ولندع الأدب الآن ، ومعظم آثاره يصدر عن العاطفة ، ولنحاول أن نقف على علم فانا لا نجد علماً في الأنساب ، والطب ، والنجوم ، والأنواء ، والفراسة ، والقيافة ، وإنما نجد مقتبسات وتجارب ، فيها الغث وفيها السمين .

وإذا كان الذين يعرفون الكتابة ، وهي من أهم وسائل العلم ، نزراً يسيراً من العرب وأفراداً من أهل يثرب (٣) ، وسبعة عشر رجلاً من قريش يكتبون ، فلا عجب إذا كانت العلوم بعيدة عن هذه الأمة الأمية قبل الاسلام .

ومما يثبت ذلك في كتاب الله المجيد قوله تعالى :

« هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (٤) ، وقوله تعالى عن اليهود « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » (٥)

---

(١) (حضارتنا) ص ٣ لمؤلف هذا الكتيّب ، والحضارة الأموية العربية في دمشق للأستاذ عمر أبي النصر ص ١١

(٢) بلوغ الأرب ص ٢٣٢

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٧١

(٤) سورة آل عمران ١٦٤

(٥) » » ٧٥

الثقافة العربية في صدر الاسلام

النهضة الثقافية الأولى كانت بعد هذا الدور الذي أشرنا إليه ، وكانت مصدر الانبعاث الثقافي ، وكانت ذات صور منها :

١ — دعوة الرسول (ص) إلى العلم وفي كتاب الله وسنة نبيه من ذلك كثير كقوله تعالى « وقل رب زدني علماً » (١) ، وقوله سبحانه : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٢) ، وقوله عليه السلام : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) . (٣) وقد قوبت دعوته إلى العلم في المدينة ، ومن أروع ما ورد من ذلك أنه خطب الناس قائماً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر طوائف من المسلمين فأثنى عليهم خيراً ثم قال : ما بال أقوام لا يعلمون جيرانهم ولا يفقهونهم ولا يفطنونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ؟ ومابال أقوام لا يتعلمون عن جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتفطنون ؟ والذي نفسي بيده ليعلمن قوم جيرانهم ، وليفقهنهم ، وليفطننهم ، وليأمرنهم ، ولينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ، وليتفقهن ، وليفطنن ؛ أو لأعاجلنهم بالعقوبة في دار الدنيا .

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل بيته ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم : من يعني بهذا الكلام إلا الأشعريين ! إنهم فقهاء علماء ولهم جيران من أهل المياه جفاة جهلة . فاجتمع جماعة من الأشعريين فدخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : قد ذكرت طوائف المسلمين بخير وذكرتنا بشر فما بالنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة طه ، ١١٤

(٢) سورة فاطر ، ٢٨

(٣) رواه الطبراني في الكبير والأوسط .

لتعلمن جيرانكم ، ولتفقهنهم ، ولتفطننهم ، ولتأمرنهم ، ولتنهونهم ، أو لأعاجلنكم بالعقوبة في دار الدنيا .

فقالوا : يا رسول الله أما إذن ، فأمهلنا سنة نعلمهم ، فأمهلهم سنة . (١)

٢ — تحقيقه عليه السلام دعوته تحقيقاً عملياً خارجياً أيضاً ، ومن ذلك أن رجال العقبة الأولى : (لما كان انصرافهم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن مكتوم ومصعب بن عمير يدعوهم إلى الاسلام ويعلم من أسلم منهم القرآن والشرائع ، فنزل بالمدينة على أسعد بن زرارة) (٢) .

٣ — واغتنامه عليه السلام فرصاً نادرة لنشر العلم في مقدمتها أنه جعل تعليم الكتابة شرطاً في فداء بعض الأسرى ، فقد (كان فداء أهل بدر أربعين أوقية ، فمن لم يكن عنده علم عشرة من المسلمين الكتابة ، فكان زيد بن ثابت ممن عُلم) (٣) .

وزيد بن ثابت الذي علم على هذه الطريقة أصبح ركناً من أركان نهضة الثقافة العربية كما بينا شيئاً من ذلك فيما يلي :

٤ — ودعوة الرسول الكريم إلى تعلم بعض اللغات . ولا تخفى آثار ذلك في الثقافة ، فقد ورد أنه عليه السلام قال لزيد بن ثابت (تعلم كتاب اليهود فاني ما آمن يهودياً على كتابة) (٤) وإن زيداً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنه تأتيني كتب من أناس لا أحب أن يقرأهن كل واحد ، فهل تستطيع أن تتعلم السريانية ؟ قال : قلت نعم فتعلمتها في سبعة عشر يوماً . (٥)

وكان زيد يكتب للملوك ويجيب بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ترجمانه بالفارسية ، والرومية ، والقبطية ، والحبشية ، تعلم ذلك بالمدينة من اهل هذه الألسن (٦) .

---

(١) رواه أبو داود بن عساكر في كتاب التبيين بسنده إلى علقمة بن عبد الرحمن بن ابزى عن أبيه عن جده عن رسول الله (ص) .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٨٣ (ط ١٣٥٥ هـ) .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٦١ (ط ١٣٥٨ هـ) .

(٤) صحيح البخاري .

(٥) أبو بكر بن شيبة في مسنده : ولعله تعلم منها في هذه المدة مقداراً كافياً .

(٦) التراتيب الادارية للأستاذ عبد الحي الكتاني ص ٤٠٢

٥ — وجعله للمرأة نصيباً من التعليم النبوي ، وفي الحديث النبوي : (جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك ، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله . فقال : اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا وكذا . فاجتمعن فأتاهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمهن مما علمه الله ...) (١)

٦ — وكونه عليه السلام قدوة في طلب العلم روي أنه (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من بعض حجره ، فدخل المسجد ، فاذا هو بحلقتين إحداهما يقرءون القرآن ويدعون الله ، والأخرى يتعلمون ويعلمون ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كل على خير ، هؤلاء يقرءون القرآن ويدعون الله ، فان شاء أعطاهم ، وإن شاء منعهم ، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون ، وإنما بعثت معلماً فجلس معهم . (٢)

وكان إذا جلس جلس إليه أصحابه حلقاً حلقاً (٣) ، وكان يساعده في عمله عدد من الكتاب :

أربعة اختصوا بكتابة الوحي .

واثنان بالكتابة له في حوائجه .

واثنان يكتبان بين الناس .

واثنان يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء .

وكان أحد الكتاب زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك أيضاً ، واختص أحد الكتاب بالنيابة عن كل كاتب يغيب ، وحفظ خاتمه . (٤)

* * *

سار أصحاب الرسول الكريم في النهج الذي أراد فتعلموا وعلموا ، وكان منهم من اشتهر بذلك :

ومنهم أبو عبيدة بن الجراح ، فقد طلب أبو ثعلبة أن يدفعه رسول الله إلى رجل حسن التعليم فدفعه إليه .

---

(١) صحيح البخاري عن أبي سعيد .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه عن عبد الله بن عمر .

(٣) مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي عن قرة .

(٤) عبقرية الاسلام في أصول الحكم للعليم منير العجلاني ص ٧٠ نقلاً عن الجهشياري ص ١٤ يعني كتاب (الكتاب والوزراء)

ومنهم أسيد بن حضير بعث إليه النبي عليه السلام إبراهيم بن جابر بعدما أعتقه وأمره أن يمونه ويعلمه .

ومنهم خالد بن سعيد بن العاص أسلم الأزرق بن عقبة الثقفي ليمونه ويعلمه . (١)

ومنهم عبادة بن الصامت وكان يعلم أهل الصفة الكتابة والقرآن . (٢)

وكان عبد الله بن سعيد بن العاص يعلم الناس الكتابة بالمدينة كما أمره النبي عليه السلام ، وكان كاتباً محسناً . (٣)

. . .

وبدهي بعد هذا أن يكون المسجد هو المدرسة في هذا العهد ، مادام الدين هو الداعي إلى العلم .

ولقد رأى المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع في المسجد شعر حسان بن ثابت ويثني عليه ، وشهدوه يسمع شعر كعب بن زهير وهو ينشد منه قصيدته (بانت سعاد) فيجيزه بمئة من الابل ويخلع عليه بردته . فعلموا من ذلك أن المسجد للعبادة وللعلم وللأدب . . . (٤)

وعلى ذلك سار الصحابة في تعليمهم وتعلمهم ، ومما يشير إلى ذلك أيضاً ما ذكره أبو نعيم في الحلية في ترجمة ابن عباس عنه أن طلاب العلوم لما ازدحموا عليه حتى ضاق بهم الطريق ، رتبهم في التقديم على حسب مطالبهم ، ولم يراع في ذلك سابقاً ، فنادى بالطالبين للقرآن وحروفه وما أرادوا منه على سائر الطالبين ، فلما فرغوا دعا لمن طلب تفسير القرآن وتأويله فجعلهم في الرتبة الثانية ، فلما فرغوا دعا لمن طلب الحلال والحرام والفقه فجعلهم في الثالثة ،

---

(١) مجلة التمدن الاسلامي م ٨ (ج ٧ و ٨) ص ٣٧ من مقال للأستاذ محمد دهمان .

(٢) مشكل الصحيحين لابن الجوزي ، وأهل الصفة فقراء من المهاجرين كانوا يأوون إلى صفة في المسجد النبوي .

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ص ٣٩٣

(٤) شهدوا في المجلس أموراً أخرى فيها منافع للناس كاتخاذه داراً للقضاء وميداناً للرماية والتدريب مما لا نبحث فيه الآن . كما ورد في الصحيحين عن لعب الأحباش بحرابهم في المسجد في يوم عيد ، وكما ورد في مسند الامام أحمد عن ناس من الأنصار كانوا يترامون بعد أن يصلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما فرغوا دعا لمن طلب الفرائض وما أشبهها فجعلهم في الرابعة ، فلما فرغوا دعا لمن طلب العربية والشعر والغريب من الكلام فجعلهم في الخامسة . (١)

فمن يجادل في كون رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا هو المعلم العربي الأول؟ ولقد حض على القراءة والكتابة والعلم... وإن كان هو أمياً ، لأن أميته الثابتة تزيد الثقة بما جاء به من لدن عليم حكيم .

وقامت إلى جانب المسجد الكتاتيب ، ثم شيدت المدارس ، ونشطت الترجمة ، وعمرت خزائن الكتب ، وقامت المدارس ، وراجت سوق العلم ببضاعته على انواعها ، وتهافت عليها المتهافتون وتنافس فيها المتنافسون .

(١) التراتيب الادارية للكتاني ج ٢ ص ٣٥٠

نموّ الثقافة الاسلامية وازدهارها

كل صحابي كان مدرسة وحده لأنه مشبع بروح الخير والتعليم ، وقد اخذ عن الصحابة الذين اتيح لهم الضرب في الارض كثير من الناس . و (كانت اول بعثة علمية ارسلت من الحجاز الى الشام في امارة يزيد بن ابي سفيان . كتب هذا الى عمر بن الخطاب ان اهل الشام قد كثروا وربلوا وملئوا المدائن واحتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فاغثني يا امير المؤمنين برجال يعلمونهم ، فارسل اليه معاذاً وعبادة وابا الدرداء ، فصار الأول والثاني الى فلسطين ، وصار الثالث الى دمشق . وكان الفضل الاول في اقتراح هذا المشروع العظيم لاحد ابناء ابي سفيان النجباء ، كما كان الفضل الاعظم لعثمان بنسخ صحف القرآن في المصاحف ، فارسلت المصاحف التي كتبت منه الى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة . . . (١)

وكان من حول كل عالم صحابي تلاميذ من الجيل الثاني ، فمن تلاميذ معاذ بن جبل (٢٠ ق هـ - ١٨) مالك بن يخامر السكسكي (ت ٧٠) وهو الذي قال لمعاذ حين حضرته الوفاة : والله ما ابكي على دنيا كنت اصيبها منك ، ولكن ابكي على العلم والايمان اللذين كنت استفيدهما منك .

ومن تلاميذ معاذ ايضا عمرو بن ميمون الاودي (ت ٧٤) وهو من شيوخ الشعبي وسعيد بن جبير واضرابهما ، وابو مسلم بن عبد الله بن ثوب الخولاني (ت ٦٢) وهو من شيوخ جبير بن نفير ومكحول وامثالهما . ومسروق بن الاجدع الهمداني (ت ٦٣) وابو

---

(١) الاسلام والحضارة العربية للاستاذ محمد كرد علي ص ١٦٣ . وقد رأينا اصل ذلك في صحيح البخاري .

وائل شفيق بن مسلمة الاسدى (المتوفى في خلافة عمر بن عبد العزيز) وعشرات غيرهم .

ولقد طلب عمرو بن ميمون من معاذ وهو في مرض موته ان يتخير له ينبوعا آخر من ينابيع الحق والخير ، فأوصاه بان يلحق بابن مسعود ويطلب العلم عنده ، ففعل .

ومن تلاميذ عبد الله بن العباس طاوس بن كيسان الجندي (ت ١٠٦) وهو من شيوخ امام المفسرين للقرآن مجاهد بن جبر وعمرو بن شعيب حفيد عمرو بن العاص والزهري وعمرو بن دينار وتلك الطبقة .

ومن تلاميذ بن عباس سعيد بن جبير ، وعكرمة ، وابن المسيب وابو العالية ، وعطاء بن يسار ، وابو الشعثاء . وعن هؤلاء انتشر العلم ، وبهم عرفت الشريعة ، وعلى فقههم قامت الدولة . (١)

وعندي ان طريقة الملازمة هذه اشبه بطريقة جامعيـــة ، وقد تفوقها ، لأن الاستاذ الجامعي اليوم لايلازمه تلميذه ملازمة من تحدثنا عنهم .

* * *

اما تعليم الصغار او تعليم الكبار الاميين فقد يكون في المسجد كما ذكرنا ان عبادة بن الصامت كان يعلم اهل الصفة الكتابة والقرآن ، وقد يكون في الكتاب ، وقد ترجم البخاري في الادب المفرد (باب السلام على الصبيان) فاسند الى ابن عمر انه يسلم على الصبيان في المكتب ، وهذه من الاشارات الواضحة الى وجود الكتاب حينئذ .

وتعجبني اشارة طريفة الى ان التعليم والتفقيه كان في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اجباريا ، فقد جعل في المدينة اشخاصاً يفحصون المارة فمن وجدوه غير متعلم احذوه الى الكتاب وجيء اليه باعرابي فقال له عمر : هل تحسن القرآن ؟ قال الاعرابي نعم ، فقال عمر : فاقرأ ام القرآن فقال الاعرابي : والله ما احسن البنات فكيف الام ! فضربه عمر ثم اسلمه الى الكتاب فمكث فيه مدة ثم هرب وانشد يقول :

---

(١) مجلة الفتح م ١٧ ج ٨٤٦ ص ٢٠ من كلمة للاستاذ محب الدين الخطيب صاحبها . وفي الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٩٣ ذكر لمن كان يفتي بعد الصحابة ، ومن المصادر القريبة التشريع الاسلامي للاستاذ الخضري ، وانظر الى طبقات الرواة وطبقات التابعين وطبقة تابعي التابعين في (حسن الاثر في التعريف) برجال الاثر للأستاذ أمين سرور .

اتيت مهاجرين فعلموني ثلاثة اسطر متتابعات
كتاب الله في رق صحيح وآيات القران مفصلات
وخطوا لي ابا جاد وقالوا تعلم سعفصاً وقريشات
وما انا والكتابة والتهجي وما حظ البنين من البنات(١)

. . .

وخطت الثقافة في العصر الاموي خطوتها مع ان الفتوح كانت على تقدمها ، وبدأ مناصرتها معاوية نفسه :(قال يوماً : وددت ان عندنا من يحدثنا عما مضى من الزمن هل يشبه ما نحن فيه اليوم ، فقيل له ان بحضرموت رجلا معمراً اسمه امد بن ابدالحضرمي ، فأتى به ، وورد عليه من اليمن عبيد بن شرية من المعمرين ، وكان آية باهرة في معرفة تاريخ اليمن وملوك العرب والعجم يرويها مشفوعة بالقصائد الرنانة ، فامر معاوية كتابه(٢) ان يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شرية في كل مجلس سمر فيه معاوية ، وكان يعجب بما يلقيه عليه عبيد ، ويستزيده من ايراد الشعر ، وكان بدء تدوين التاريخ على يد معاوية . واستصفى معاوية ايضاً كعب الاحبار وهو من حمير من آل ذي رعين ، فجعله معاوية من مستشاريه لكثرة علمه ، وكان سعيد بن عريض بن عادياء ... من يهود الحجاز شاعراً يفد على معاوية فيدخل عليه وهو على طنفسة ونعلاه في رجله وهو متوشح بملحفة فيكثر معاوية الترحيب به ويدني مجلسه ويأخذ بيده .(٣)

ولا يتسع المقال لذكر ما فعله كل خليفة وتبيان مراحل كل علم ، وقد اشرنا الى بعض ذلك فيما كتبناه عن تاريخ العلوم في كتابنا :(حضارتنا) .

ولسنا ننكر بعد هذا ان الثقافة العربية لم يكن لها غالباً قبل ان تختلط بغيرها من الثقافات سوى لونين اصليين : لون الدين ولون الادب ، وقد يكون هنالك لون ثالث وهو لون التاريخ الذي يمكن رده الى اللون الديني ، لأن اول ما عني به من التاريخ سيرة

---

(١) (مجلة التمدن الاسلامي م ٨ ج ٧ و٨ ص ٣٨) من مقال للاستاذ محمد دهمان
(٢) اخبار عبيد بن شرية الجرهمي والفهرست لابن النديم .
(٣) الاسلام والحضارة العربية ص ٦٤ ؛

النبي (ص) وما يتبعها من مغاز ،) [1] بل كثيراً ما يمكن رد اللون الأدبي واللغوي الى اللون الديني ايضاً ، لان الدين هو الحافز الحقيقي التي طافت حوله الالوان الاخرى لخدمته

وانتهى (دور العزلة الثقافية) و (كانت حضارة الفرس وحضارة بيزنطة العظيمتان قد انتهى امرهما حينما بدات فتوح العرب ، وقداستوقف العالم الذي فتحه العرب انظارهم) [2] وكان اختلاطهم او امتزاجهم بسواهم من نصارى ويهود وفرس وهنود ، داعياً الى تأثرهم بهم ، وقد دخل الناس في دين الله افواجاً ، وكثر الموالي ، وامتزجت الدماء بالدماء والافكار بالافكار ، والعادات بالعادات وكانت في تلك الرقعة الواسعة الجديدة ثقافة فارسية ، وثقافة هندية ، وثقافة يونانية ذات مراكز هامة كجنديسابور وحران والاسكندرية ، وكان فيها ايضاً ديانات شرقية كاليهودية والمسيحية ، وحق لذلك كله ان يكون مدعاة لتأثر وتأثير .

وقدر العرب ثقافة سواهم مبكرين ، ففتح باب الترجمة الثقافية الأمير الاموي الحكيم العالم خالد بن يزيد فكان اول من طلب الكتب و (امر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربية ، وامرهم بنقل الكتب الى الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي) والصنعة صنعة الكيمياء ، فترجمت له كتب فيها ، كما ترجمت له كتب في الطب والنجوم [3] .

ثم نشطت الترجمة في زمن العباسيين ، والعرب — كما قال غوستاف لوبون — : كان حبهم للعلم عظيماً ، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقاً لاجتذاب العلماء ورجال الفن إلا سلكوها .

وقد شهر أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد ، وكان العلماء ورجال الفن والادباء من جميع الملل والنحل يتقاطرون الى بغداد التي كانت مركز الثقافة العالمية [4] . وقال هذا العالم أيضاً : (والانسان يقضي العجب

---

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣١٩

(٢) حضارة العرب للوبون ص ٤٥٩

(٣) خطط الشام للأستاذ كردعلي ج ٤ ص ٢٦

(٤) حضارة العرب ص ١٩٣

من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث والتحقيق ، واذا كانت هنالك أمم قد تساوت هي والعرب في ذلك فانه لم تفق أمة العرب على ما يحتمل (١) .

وما عسى أن نتحدث الآن ، ونحن نشير الى مراحل فحسبنا في علم واحد كالطب مثلا أن نقرأ ما يحدثنا به ابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الاطباء ، وابن القفطي في كتابه تاريخ الحكماء ، وكاتب شلبي في كشف الظنون ، والعلم أحمد عيسى بك في تاريخ الاطباء وفي تاريخ البيمارستانات في الاسلام ... لنرى مبلغ الجد ومبلغ الثمرات .

وبدهي ان يكون من مصادر النهضة العلمية التي نكتب فيها مجالس للعلم ورحلات للعلماء وخزائن للكتب يفاخر بها سجيس الليالي ، كان أعظمها دار الحكمة او بيت الحكمة التي أنشأها الرشيد ، وكان لها رئيس ومساعدون ومجلدون (٢) ، وكان فيها الكتب اليونانية والفارسية والهندية وغيرها بلغاتها ، وكانت تنسخ فيها وتنقل للعربية .

وبدهي أن يكون من مصادر هذه النهضة أيضاً مدارس كان بعضها كالجامعات ترفع بها رؤوس المجد الاسلامي عالية عزيزة .

وقد يتساءل المتسائلون عن سر تأخر انشاء المدارس الى ما بعد القرن الرابع على ما يرويه المقريزي(٣) ـ او قبل ذلك كما يقول السبكي (٤) ـ ، ونحن نخالف الاستاذ آدم متز اذ قال : (وكان تغير طريقة التعليم سبباً في ايجاد نوع جديد من المؤسسات العلمية ، ذلك أنه لما انتشرت طريقة التدريس نشأت المدارس ، ولعل من أكبر الاسباب في ذلك ان المساجد لم يكن تخصيصها للتدريس بما يتبعه من مناظرة وجدل قد يخرج أصحابه احياناً عن الادب الذي تجب مراعاته للمسجد)(٥) ، نخالفه في ذلك ، إذ نرى ان انشاءها راجع الى الضرورة الاجتماعية والى التأثر بالبيئة الاسلامية الجديدة التي عرفت المدارس ، فقد كان للسريان مثلا فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة ، اشهرها مدرسة الرها وقنسرين ونصيبين

(١) حضارة العرب ص ٤٦٠

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٢٧٤ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٣٦٣

(٤) طبقات الشافعية ج ٣ ص ١٣٧

(٥) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ص ٢٣٧

ودراسة الغرباء تستدعي التسهيل عليهم ، يؤيد ذلك ان الحلقات انشئت قبل في اتارستانات والربط والمنازل ، فلم تنشأ المدرسة اذن حرمة للمسجد . ولقد كان من العلماء بعد ان انشأت المدارس من يدرس بعض العلوم الكونية في المساجد ، كابن ناقلي الذي كان يدرس الكيمياء في الجامع الاموي بدمشق ، كما روى ذلك الشيخ عبد اللطيف البغدادي (١) ، ولم تختص المدارس بالعلوم الكونية والمساجد بالعلوم الدينية والعربية ، بل كانت العلوم جميعاً في هذه وتلك بعد تأسيس المدارس بكثير ، وقد (كان العلماء يفدون الى دمشق (مثلاً) ايام نور الدين من الشرق والغرب من سمرقند ومن قرطبة ليعلموا ويتعلموا في مساجدها ومدارسها)(٢) .

ذكر الشيخ عبد الرحمن الاربلي علوم (المستنصرية) جامعة بغداد التي افتتحت سنة ٦٣١ فقال : (فهي كعبة الأنام ، وقبة الاسلام ، ومجمع سائر الدين ، ومذاهب المسلمين ، وعلم الاصول والفروع المتفرق منها والمجموع ، وعلم الفرائض ، وأحاديث الرسول ، ومعرفة الحلال والحرام ، وقسمة الفرائض والتركات ، وعلم الحساب والمساحات ، وعلم الطب ، ومنافع الحيوان ، وحفظ قوام الصحة ، وتقويم البلدان) (٣) . وتاريخ العلم في مساجده ومدارسه شاهد بأمثال هذه الوحدة العلمية .

(١) مجلة التمدن الاسلامي م ٥ ج ٩ ص ٢٣٨

(٢) حياة صلاح الدين الايوبي للعليم احمد بيلي ص ٦٧

(٣) نقلا عن رسالة المدرسة المستنصرية لنادي المثنى ص ٤ ، نقلا عن خلاصة الذهب المسبوك للاربلي .

ومضة من تاثير الثقافة العربية

في الشرق والغرب

الثقافة العربية الاصلية والثقافة العربية الكونية المكتسبة سارا في ظلال النهضة سيراً حثيثاً ، فكانت لهما ثمرات دانية القطوف في مساجدها وكتاتيبها ومجالسها ورحلاتها وكتبها ومختبراتها .. تدل على ما بذل في سبيلهما من مال وما خصتا به من عناية ورعاية .

(ولم تقف الثقافة العربية في الشرق عند حدود الفتوح ، وانما تجاوزتها الى حدود الهند والصين على يـــد التجار من العرب ، والمهاجرين من الفرس ، والغازين من الترك والمغول . فالعرب نقلوا في رحلاتهم التجارية طائفة كبيرة من المعارف الى تلك البلاد ـ ظنها الاوربيون فيما بعد اصيلة فيها . وقد ألح العلامة سديو الفرنسي صاحب كتاب تاريخ العرب في التدليل على هذا الرأي . والرياضي النـابغ محمد بن احمد البيروني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ نقل الى الهند اثناء اتصاله الطويل بمحمود الغزنوي خلاصات قيمة من العلوم العربية نقلها الهنود الى السنسكريتية في مثنوية من النظم . وكوبلاي خان المغولي ادخل في الصين طب العرب وبعض ما الف من الكتب في بغداد والقاهرة . ثم اخذ الفلكي الصيني (كوشيو كنج) ازياج ابن يونس المصري من جمال الدين الفارسي ونشرها في بلاده) (١) .

وفي أيام مجد العرب العلمي (كان الغرب من بحره الى محيطه يعمه في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموحة ، وكان حظه من الثقافة يومئذ ما تضمه حصون الأمراء

---

(١) في اصول الادب للأستاذ احمد حسن الزيات ص ٩٣

المتوحشين من بعض الكتب أو ما يعلمه بعض الرهبان المساكين من قشور العلم . وانقضى القرن التاسع والقرن العاشر للميلاد وأولئك الأمراء في قصورهم يتبجحون بالأمية ويرتعون في الدماء ، وهؤلاء الرهبان في ديرهم يمحون الكتابة من روائع الكتب القديمة لينسخوا على صفحاتها الممحوّة كتب الدين ، حتى أزال الله الغشاوة عن بعض العيون ، فرأوا من وراء هذا الظلام الداجي بقعة من المغرب تسطع فيها شمس المشرق ، فلما تبينوا أن البقعة هي جزء من اسبانية ، وان النور قبس من نور بغداد ، استيقظ في نفوسهم طموح الكمال الانساني ، فطلبوا العلم فلم يجدوه إلا عند العرب ...) (١) .

كان ذلك : (بينما كانت اوربة – كما قال المؤرخ سيديو – مظلمة بجهالات اهليها(٢) ، وكان السعيد فيها من أمّ معاهد العرب يرتشف منها (كما جلس سلفستر على مقاعد جامعة قرطبة في الأندلس في القرن العاشر ، وتلقى فيها العلوم العالية ، ثم غادرها واسس مدارس كثيرة في ايطالية وفرنسة ولم يطل امده حتى ارتقى السدة البابوية باسم سلفستر الثاني) (٣) وكما كان البير الكبير مديناً لابن سينا ، والقديس توماس مديناً بفلسفته لابن رشد – كما قال رينان (٤) .

وقد اخذ الفرنجة ينقلون الكتب العربية حينما انتقلوا الى عهد اليقظة بعد هجوعهم الطويل . من ذلك مثلا أن (ترجمت كتب الرازي الى اللغة اللاتينية وطبعت عدة مرات في تواريخ مختلفة ، ولا سيما في سنة ١٥٠٩ م في البندقية ، وفي سنة ١٥٢٨ م ، وسنة ١٧٤٥ في باريس ، وقد أعيد طبع ترجمة كتابه في الجدري والحصبة في سنة ٤١٧٥ م . وقد ظلت كليات الطب في اوربة تعتمد على كتبه زمناً طويلا ، وقد كانت كتبه مع كتب ابن سينا ، اساساً للتدريس في جامعة لوثان في القرن السابع عشر من الميلاد ، كما ثبت ذلك من برنامجها لسنة ١٦١٧ ، وقد ظهر من ذلك البرنامج ان مؤلفات علماء اليونان

---

(١) في أصول الأدب ص ٩٣ و ٩٤

(٢) الحضارة عند العرب للأستاذ عبد الله بوركي ، نشر شيء منه في (الضاد) م ٨ ج ١٠ ص ٤٧١

(٣) ص ٣٩٥

(٤) ص ٤٧١

الطبية لم تنل من الحظوة إلا قليلاً ، وانه لم يكن يُلتفت منها إلا الى بعض جوامع الكلم لبقراط وبعض الخلاصات لجالينوس) [1] وترجم كتاب (الملكي) لعلي بن العباس ، ثم طبع في مدينة ليون في سنة ١٥٢٣ م [2] ، و (نقلت كتب ابن سينا الى اكثر لغات العالم ، وقد ظلت مرجعاً عاماً لأطباء العالم ، واساساً للمباحث الطبية في جامعات فرنسة وايطالية ستة قرون ، وقد كان طبعها يعاد حتى القرن الثامن عشر ، ولم ينقطع اساتذة الطب في جامعة مونبيلة عن شرحها إلا منذ خمسين سنة فقط) [3] .

وروى العليم غوستاف لوبون ايضاً عن اشهر جراحي العرب ابي القاسم القرطبي (ت ١١٠٧ م) قول العالم الطبيعي الكبير هالر : (كانت كتب ابي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر) [4] ، وقد طبع كتابه في الجراحة طبعة حديثة في سنة ١٨٦١ م [5] ... الخ

(وتنطوي مدرسة سالِرن على نصائح غالية في علم الصحة ، ولا احدَ يجهل ان هذه المدرسة التي عُدت اول مدرسة في اوربة زمناً طويلاً ، مدينة للعرب بشهرتها . وبيان الأمر ان النورمان لما استولوا على صقلية وعلى جزء من ايطالية في اواسط القرن الحادي عشر من الميلاد احاطوا مدرسة الطب التي انشأها العرب بما احاطوا به المؤسسات الاسلامية من الاعتناء الكبير ، فعيّن قسطنطين الافريقي الذي كان من عرب قرطاجة رئيساً لها ، فترجم اهمّ كتب العرب الطبية الى اللغة اللاتينية ، فاقتطفت وصايا مدرسة سالرن التي كانت سبب شهرتها الفائقة زمناً غير قصير من تلك الكتب) [6] .

هذا فضلاً عن التقليد الثقافي عن غير طريق المدرسة والكتاب كما حدث في الحروب

---

(١) الحضارة عند العرب ص ٣٩٥

(٢) حضارة العرب للعليم غوستاف لوبون ص ٥١٧

(٣) ص٥١٨ و ٥١٩ وقد ظهر كتاب حضارة العرب عام ١٨٨٤

(٤) ص ٥١٩

(٥) ص ٥١٩ ، وفي كتابنا (حضارتنا) ص ٣٣ بحث طويل في تأثير الادب العربي في الادب الغربي .

(٦) حضارة العرب ص ٥٢١ و ٥٢٢

الصليبية التي كان من تأثيرها في الغرب انها فتحت عيونه فابصر نور الحياة بعد ان كان في ظلام حياة الجهل المريرة.

نقول هذا غير ناسين مظاهر الأناقة والعمران التي قد تبديها بعض الكنائس والقصور في اوربة ، إذ لا تكفي ان تكون برهاناً على علم شامل ولا على تهذيب رفيع ولا على تسامح ورحمة ، ما دام الشعب يعيش في اكواخه ويعاني من لغوب العيش وظلم المستبدين وظلام الجهل ما يعاني .

وما ذا تريد تقديراً لثقافة العرب وحضارتهم بعد ان يقول اديب كبير هو « اناتول فرانس » وهو يزن ما يقول : حبّذا لو سار العرب قُدماً الى باريس ، إذن لعجلوا بالحضارة قبل قرون (١) .

(١) الحضارة عند العرب ص ٤٧٣

مظاهر الطريقة العلمية

في الثقافة العربية

من الواجب حين البحث في تاريخ الطريقة العلمية في حضارتنا الكلام على مراحل العلوم العربية الأصلية وغيرها ، والتأليف فيها ، وما انتهجه كل علم منها ، وذلك ما لا تتسع له كلمة . ولكن الذي نريد ان نجمله هنا الاشارة الى تلك الطريقة ، او الطرق العلمية ، مع نماذج تشف عنها ، وغايتنا ان نبين ان اعلام عهد النهضة والازدهار في الغرب أمثال كوبرنيكس وكبلر وغاليلي وباكون ونيوتن وديكارت وأديسون ، قد سبقهم اعلام عهد النهضة في الشرق وازدهارها في علوم ادبية ومادية كالأئمة الاربعة — كل حسب طريقته — والجاحظ [ت ٢٥٥] والبخاري [٢٥٦] والكندي [٢٦٠] والدينوري [٢٨٢] والطبري [٣١٠] والبتاني [٣١٧] والفارابي [٣٣٩] وابن سينا [٤٢٨] وابن الهيثم [بعد ٤٣٠] والبيروني [٤٤٠] والغزالي [٥٠٥] وابن رشد [٥٩٥] وابن الطفيل [٥٨١] وابن خلدون [٨٠٨] .

ولا ينكر فضل المتقدم إن لم يبلغ في زمنه شأو المتأخر ، فإن للزمن فضله و(الحقيقة بنت الزمان) في كثير من الاحيان ، كما قال باكون (١) ، و(ان الرجل الاول الذي خطر له في بقعة من بقاع ما بين النهرين ، وفي ساعة مجهولة من ساعات التاريخ ان يقطع جذع شجرة ضخمة قطعاً مستعرضاً ، ليجعل منها دولابين اثنين (غير تامي الاستدارة) ، ويضع عليهما عربة يستخدمها في نقل بعض اثقاله ، لأعظم قيمة في تاريخ تقدم العلوم من مخترع دواليب الكاوتشوك ومن مخترع الآلة التي تقسم الثانية الواحدة من الزمن عشرة آلاف جزء ، كل جزء منها مساو لكل جزء آخر من غير ان نخطىء في ذلك ابداً . ان

---

(١) بين الدين والعلم للأستاذ اندرو ديكسون تعريب الاستاذ اسماعيل مظهر ص ٣

جميع المخترعين العظام في كتب التاريخ وفي عرف المدارس والمعامل ، حتى اولئك الذين علقت صورهم في المتاحف ونصبت تماثيلهم في الساحات العامة ، مدينون كلهم لذلك العبقري المجهول الذي كشف لهم عن اعظم مبـــدأ من مبادىء علم الحيل « الميكانيك » بصنع الدولاب الفطري الاول .) (١)

ولئن قيل : ان العرب سبقهم امثال المفكرين فيثاغورس ، وارسطو ، واقليدس ، وارخميدس على علمهم وثمراتهم ، فلا ننس تقديرهم للعلوم في زمن قطعت فيه اوربة كل صلة ثقافية بالعالم القديم ، (وكانت غارقة في غزوات البرابرة المنحدرين اليها من الشرق والشمال ، وكانت بقايا معالم المدنية فيها تتقصف تحت سنابك البرابرة الغزاة) .

(ثم اننا اذا التفتنا الى اليونان نفسها والى اليونانيين انفسهم — وهم الذين يجب ان يكونوا ورثة الفلسفة القديمة والامناء على نتاج عباقرتهم من عهد ثاليس الى عهد سقراط ، فأفلاطون فأرسطوطاليس ، فالى الذين خلفوا هؤلاء في حمل مشعل الفكر الانساني ، نجد امراً عجباً : نجد ان هؤلاء اليونانيين قد فتشوا المكاتب والمدارس والخزائن عما فيها من الكتب فجمعوها وكدسوها في الدهاليز والاقبية وحالوا بينها وبين طلاب العلم ورواد النور والباحثين عن الحقيقة ، وقد اجمع مؤرخو الفلسفة على ان الروم « اليونانيين » قد طمروا هذه الكتب منذ دخلت النصرانية الى بلادهم) (٢) .

وما أعدل قول العليم غوستاف لوبون في تحدثه عن مناهج العرب العلمية اذ قال :

إن المكتبات والمختبرات والآلات لم تكن غير وسائل للدرس والبحث ، وان قيمتها في معرفة الاستفادة منها ، فقد يستطيع المرء أن يكون مُطلعاً على علوم الآخرين ، وان يبقى ، مع ذلك ، عاجزاً عن التفكير الطليق وابتداع أي شيء ، وان يظل ، لذلك ، تلميذاً غير قادر على الارتقاء الى درجة استاذ ، وسيرى القاريء من الاكتشافات التي نذكرها في الفصول الآتية مقدار ما اكتشفه العرب بما لديهم من الوسائل . والآن أقتصر على ذكر المناهج العامة التي استعانوا بها في توجيه ابحاثهم ، فالعرب بعد ان كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان لم يلبثوا أن ادركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب ، ولا تقل ان ما ادركه العرب هو من الحقائق المبتذلة ، فقد جد علماء القرون الوسطى في أوربة الف سنة قبل أن يعلموه .

---

(١) عبقرية العرب في العلم والفلسفة للعليم عمر فروخ ص ١١

(٢) ص ١٣

يقول الاوربيون أن بيكن أول من قال بالتجربة والترصد اللذين هما ركن المباحث العلمية الحديثة ، ولكن الانصاف يقضي بان نعترف بان الفضل في ذلك للعرب وحدهم ، وقد ابدى هذا الرأى ، مع ذلك ، جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ، ولا سيما العالم الشهير همبولد ، فبعد ان ذكر همبولد ان ما قام على التجربة والترصد هو افضل ما في العلوم قال : « ان العرب ارتقوا في علومهم الى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء » .

وقال مسيو سيديو : « ان من اهم ما اتصفت به جامعة بغداد منذ البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة فيها في استخراج المجهول من المعلوم والعلل من المعلولات وفي عدم التسليم بما لا يقوم على التجربة والترصد ، وقد كان العرب في القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهج المجدي الذي اقتبسه علماء اوربة بعد زمن طويل فقد كان عاملاً في اكتشافاتهم المفيدة » .

منهاج العرب قائمٌ على التجربة والترصد ، واما درس الكتب والاقتصار على تكرار رأي المعلم فمما ساءت عليه اوربة في القرون الوسطي ، والفرق بين النهجين واضحٌ ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية الا باظهار هذا الفرق.

حقاً ، لقد اختبر العرب مسائل العلم وجربوها ، وقد كانوا اول من ادرك اهمية هذا المنهج في العالم ، وقد ظلوا عاملين به وحدهم زمناً طويلاً . قال دولامبر في كتاب تاريخ علم الفلك » : اذا عددت بين الاغريق راصدين او ثلاثة ثم نظرت الى للعرب امكنك ان ترى بينهم عدداً كبيراً من الرّصاد » . واما في الكيمياء فلا تجد عالماً يونانياً استند في مباحثه الى التجربة ، مع انك تعد مئات من علماء العرب الذين قامت مباحثهم الكيمياوية على التجربة .

وقد منح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتهم دقة وابداعاً لا ينتظر مثلها من رجل تعود درس الحوادث في الكتب ، ولم يبتعد العرب عن الابداع الا في الفلسفة التي كان يتعذر قيامها على الترصيد والتجربة .

وقد نشأ عن منهاج العرب التجربي الخاص وصولهم الى اكتشافات مهمة ، وسوف ترى من مباحثنا في اعمال العرب العلمية انهم انجزوا في ثلاثة قرون او اربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الاغريق في زمن اطول من ذلك كثيراً ، وقد حدث ان انتقل تراث الاغريق العلمي الى البيزنطيين الذين لم يستفيدوا منه منذ زمن طويل ، فلما آل الى العرب حولوه الى غير ما كان عليه فتلقاه ورثتهم مخلوقاً خلقاً آخر . (١)

(١) حضارة العرب ص ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣

يرجع رجحان الثقافة العربية في عصرها إلى أنها عاشت في ظل شريعة تدعو إلى العلم وتفتح له آفاقاً . وتأخذ بيد أهله من أي دين كانوا ، وقامت في منبت خصب للمعرفة ، ولذلك شأنٌ كبير في تقدم العلوم ودقة طرقها :

١ ـ وقد أشرنا في بحث سابق إلى شيء من دعوة الاسلام العلمية وتطبيقها ، ومما قاله الأستاذ أحمد أمين في كلامه على أثر الاسلام في الحركة العلمية : (وشيء آخر للاسلام كان له أثرٌ كبير في الحياة العقلية ، وهو أنه سلك في دعوته إلى الايمان بالله وصفاته من علم وقدرة ووحدانية ، مسلكاً يثير العقل ، وهو الدعوة إلى النظر إلى ما في العالم من ظواهر : « أولَم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » ، « فلينظر الانسان مم خُلق » ، « فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبّاً ، ثم شققنا الأرض شقّاً ، فأنبتنا فيها حبّاً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبّاً ، متاعاً لكم ولأنعامكم » « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكلٌ في فلك يسبحون » ، « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربّنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » ، « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » . إلى كثير من أمثال هذا الضرب من الآيات الذي بعث العقل على النظر في الكون ، وكان له أثرٌ في نموّ الحياة العقلية .

ولعل هذا ، أعني النظر في الكون للاستدلال منه على الله وصفاته ، هو الذي كان يطلق عليه القرآن والحكمة ، فقد قال الله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » ونحن إذا قرأنا ما ورد في القرآن من أقوال لقمان وجدناها من هذا النوع . وقال : « يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يُؤتَ الحكمة فقد أُوتيَ خيراً كثيراً » ، وسمى موضع العظمة إلى محمد حكمة « ولقد جاءهم من الانباء مافيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغني النذُر » ، وسمى ما أوحى الله حكمة لهذا فقال : « ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة » الخ .. ولقد سُئل مالك ما الحكمة ؟ قال : المعرفة بالدين والفقه والاتباع له (١) .

وكذلك لفظ العلم ، فالقرآن لم يستعمل الكلمة بالمعنى الذي استعمل بعدُ حين نقول (علم النحو) أو (علم الفقه) ، وهو ما يقابل كلمة Sciance ، وإنما استعمله ـ على

(١) قال الأستاذ أحمد أمين : ويفسر الطبري الحكمة بالاصابة في القول والفعل .

ما يظهر — بمعنى المعرفة بأوسع معانيها « وفوق كل ذي علم عليم » ، « ومنكم مَن يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » .

وهو بهذا المعنى يطلق حتى على المعارف الدنيوية ، كما ورد على لسان قارون : « قال إنما أوتيتُه (١) على علم عندي » أي معرفة بطرق كسب المال ، ولكن ما يستعمل في هذا النوع من المعرفة الذي يوصل إلى الهداية ، كأنه هو المعرفة التي يعتدّ الله بها ، فهو في هذا قريب من معنى الحكمة الذي ذكرنا « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » (٢) ، « ولقد آتينا داود وسليمان علماً » ، « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من وليّ ولا نصير » الخ ... (٣)

فكم لأمثال هـــذا من آثار في قوة التفكير ودقة البحث العلمي ! وهذا الامام ابن حزم (ت ٤٥٦) يقف عنـد قوله تعالى : « إن في خَلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » (٤) ، فيقول : (ولا يصح الاعتبار في خلقها إلا بمعرفـــة هيئاتها ، وانتقال الكواكب في أفلاكها ، واختلاف حركاتها في التغريب والتشريق ، وأفلاك تداويرها ، وتعارض تلك الأدوار على رتبة واحدة ، وكذلك معرفة الدوائر ، والمنطقة ، والميل ، والاستواء) (٥) . واستدلّ هذا الامام ببعض نصوص الدين على كروية الأرض فقال (البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها قال الله تعالى : « يُكوّر الليل على النهار ويُكور النهار على الليل » (٦) . وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض ، مأخوذ من كور العمامة وهو إدارتها) (٧) .

---

(١) أي المال .

(٢) لا نوافق في تفسير الآية الأستاذ أحمد أمين ، فإن قرينتَها إن رجعتَ إليها من قرينة العلوم الكونية الطبيعية (راجع سورة فاطر) .

(٣) فجر الاسلام ١٧٦ ، ١٧٧

(٤) سورة آل عمران .

(٥) الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج ٢ ص ٩٧

(٦) سورة الزمر .

(٧) الملل ج ٢ ص ٩٧

وإذا كان (من أكبر العوامل المؤثرة في إبقاء الخرافات الضارة والاعتقادات الباطلة وانتشارها حتى بين المتعلمين غريزة التقليد والميل إلى العكوف على تقاليد الماضي الباطل ، وعدم الرغبة في تغيير الحاضر ، وذلك بالاعتماد على آراء العلماء ، وقبولها قضايا مسلمة ، من غير إجهاد الفكر في معرفة الأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج التي منها دوّنوا ما دوّنوا من الأحكام على الأشياء من أنها حق أو باطل أو شر جميلة أو قبيحة) (١) ، إذا كان ذلك فإن الاسلام قد هدم إجلال (الماضي) لأنه ماضٍ ، وأخذ الناس بالتربية الفكرية التي تعصمهم من خطإ الأولين وضلالهم ، قال تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ » (٢) « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ! أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ » (٣) . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يرضى عما يخالف الحق ، ومن أروع أمثلة ذلك أنه لما مات ابنه إبراهيم قال الناس : إنما انكسفت الشمس لموت إبراهيم . فقال عليه السلام : إن الناس يزعمون أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم من العظماء ، وليس كذلك ، إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله يخوّف بهما عبادَه ، فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم) (٤) . وكان الخلفاء أعوان الدين في هذه الدعوة ، حتى أن البيت من الشعر قد تشدّ من أجله الرحال ، من ذلك أن هشام بن عبد الملك بعث في إشخاص حماد الراوية من الكوفة ، لبيت خطر بباله لا يعرف صاحبه ، وهو قول عديّ بن زيد :

ودَعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينةٌ في يمينها إبريقُ

وقطع حماد طريقه إلى دمشق في اثنتي عشرة ليلة ، ليذكر له صاحب البيت وسائر

(١) علم المنطق الحديث تأليف الأستاذ محمد حسين عبد الرزاق ص ٢٥

(٢) سورة البقرة .

(٣) سورة لقمان .

(٤) أخرجه الشيخان والنسائي . والصلاة هنا تشعر الخضوع لله وقدرته وحكمته التي تتجلى في نواميس الكون .

القصيدة (١) . وكان المأمون لا ينفك بعد أصحابه بالاصمعي في مجالسه ، بعد ان راسله منذ دخل العراق ليجيء من البصرة . ثم كان المأمون ، بعد أن احتجّ الأصمعي بضعف و كبر وعلل ، يجمع المسائل وينفذها إليه بالبصرة ، ثم ينتظر جوابها (٢) .

ب – أما المنبت الخصب ، فنعني به البيئة القديمة التي عاش فيها بعض العلماء الذين تنفسوا الصعداء في هذا العهد الاسلامي ، فقد (كانت الجامعات السريانية ، التي دانت بالمسيحية ، بيئة طيبة انتعشت فيها الفلسفة اليونانية والعلم اليوناني ، ومن ثم انتقل كلاهما إلى العرب . على أنه لم تتم بين السريان روح الابتكار والاستقلال في الرأي العلمي ، حتى أن الكتب التي ترجمت إلى السريانية ، كانت قد خرجت من يد اليونان أنفسهم ، من قبل ان تنتقل إلى السريان . وكان المعتقد الثابت عندهم أن أساس العلوم الانسانية هو منطق أرسطوطاليس ، اما مابقي مما درس أو كتب المعلم الأول ، فيجب – على معتقدهم – أن يُفسر على قواعد « الأفلاطونية الجديدة » ومن علق عليها . أما في الطب والكيمياء ، فإن برنامج مدرسة الاسكندرية فيهما كان معتبراً أرقى ما يصل إليه التثقيف في هذين العلمين . على أن هذا العلم لو اقتصر على ما نقل عن جالينوس وأبقراط ، وعلى تعاليم « بولس الأجانيطي » في طب التوليد ، لكان خيراً للناس ، لولا أن امتزج بتلك العلوم قسط من الباطنية **Myticisme** كان ذائعاً في مدرسة الاسكندرية ، وكان قوامه علم التنجيم « الأسترلوغيا » ، فتمازج العلم بالأساطير ، وشاعت فكرة أن بعض العقاقير الطبية لا تفيد فائدتها المرجوّة ، إلا عند مرور نجم من النجوم السيارة ، وما يجري ذلك المجرى من الفكرات الخيالية التي صبغت الطب في الاسكندرية ، ومن بعد عند العرب (٣) ، بصبغة من السحر والشعوذة عاقت خطاه دون الانبعاث في سبيل التقدم والرقي أزماناً متعاقبة .

ولا سبيل إلى القول ، بأن علم العرب في الطب والكيمياء كان عبارةً عن تدجيل صرف ، كما يقول بعض الذين لم يتجشموا مؤونة البحث والتحقيق . ففي العربية مؤلفات قيّمة خدمت هذين العلمين أجلّ الخدمات وأكبرها شأناً ؛ ولو أن الجمود الفلسفي الذي

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٤٠٨

(٢) ص ٤٠٩

(٣) بينا في كتاب (حضارتنا) ص ١٤٩ فضل العرب على علوم الطب

شاع في مصر كان في الغالب السبب في صدّ تيار التقدم فيها ، وعاق خطى الباحثين دون الابتكار طويلا .

• • •

ومن هنا نعتقد أن اللاهوت والفلسفة والعلم في الاسلام لم يغرس[1] إلا في أرض شبعت من قبلُ بالثقافة اليونانية على اختلاف ضروبها وتباين ألوانها . أما السبيل التي خطت فيها الثقافة اليونانية إلى العرب فذات خمس مفاوز .

أولاً – النساطرة ، الذين كانوا أول من علم المسلمين[2]، وأول الذين خدموا الطب في العصور الأوَل .

ثانياً – اليعاقبة ، الذين كانوا أول من أدخل الباطنية والأفلاطونية الجديدة في الجو العربي .

ثالثاً – الزرادشتيون في فارس ، وعلى الأخص مدرسة جنديسابور ، ولو أن هذه المدرسة قد امتزجت بعنصر قوي من عناصر النسطورية .

رابعاً – وثنيو (حرّان) ، ولو أن أثرهم في الاسلام لم يأت إلا مؤخراً .

خامساً – العبرانيون ، على أنهم لم يكونوا على صلة بالفلسفة الأرسطوطالية ، وظلت مدارسهم في صور Sora (وبامباديثا) Pambaditha عاكفة على درس شرائعهم التقليدية .

لم يبدأ العبرانيون في درس الفلسفة إلا في العصور المتأخرة ، وقد استمدوا من فلاسفة العرب . غير أنهم ورثوا عن النساطرة نزعةً إلى علم الطب ، حتى أن الأطباء اليهود قد ظهروا في أوائل عمارية بغداد . غير أنهم لم يبزوا النساطرة في ذلك . فمن بين الأطباء الذين يذكرهم العلامة لكلار M. Leclerq في كتابه تاريخ الطب عند العرب Histoire de Medicine arabe في القرن العاشر الميلادي ٢٩ طبيباً مسيحياً ، وثلاثة من اليهود ، وأربعة من وثني حرّان ؛ في حين أن النسبة اختلفت في القرن الحادي عشر ، فكانوا ثلاثة مسيحيين وسبعة من اليهود ، ومن ثم تكاثر الأطباء العرب من بعد ذلك كثرة لا تحفظ فيها النسبة بينهم وبين غيرهم)[3] .

• • •

---

(١) الصواب بنظرنا ان يقول : لم يثمر ثمراته المتنوعة فقد بدأ الغرس في مكة والمدينة

(٢) يعني التعليم غير العربي .

(٣) تاريخ الفكر العربي للأستاذ إسماعيل مظهر ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧

بدأت الدعوة العلمية منذ صدر الاسلام كما رأينا ، ثم أخذت تشتد حركتها حول أقطابها عصراً فعصراً ، حتى إذا جاء عصر المأمون وأثمرت بالترجمة وما إليها الثمرات الكثيرة ، جدّت في سيرها وقطعت كثيراً من المسافات (وكونت أول مدرسة صحيحة للترجمة في العالم العربي من حنين بن إسحاق وابنه إسحاق بن حنين وابن أخته حبيش الأعسم الدمشقي ، مع غيرهم من المترجمين ، تلك المدرسة التي أسسها الخليفة المأمون لتنقل المتون اليونانية في الفلسفة والعلوم الى العربية ...

غير أننا لا ننسى هنا أن حنين بن اسحاق كان مسيحياً نسطورياً ، واشتغل زماناً بالترجمة من اليونانية الى السريانية . والمقول انه ترجم من السريانية ، إلا أنه راجع فقط على الرواية الصحيحة ،الايساغوجي لفرفوريوس ، وأرمانوطيقا لأرسطوطاليس ، وجزءاً من الأنالیطيقا ، ومقالة لأرسطوطاليس في الروح المسماة (ده أنيما) وجزءاً من الميتافيزيقا — ما بعد الطبيعة — وتلخيصات نيقولاوس الدمشقي، وتعليقات الاسكندر الافروديسي، والجزء الأعظم من مؤلفات جالينوس Galen وديوسقورس Dioscorus ، وبولس الاجانيطي، وأبقراط .

كذلك ترجم ابنه اسحاق مقالة أرسطوطاليس de Anima في الروح. ومن الغريب أن تصبح ترجمة اسحاق لهذه المقالة وتعليق الاسكندر الافروديسي عليها مرجعاً من أهم المراجع لدرس الفلسفة في عصرنا هذا ، ذلك لأن الفكر قد اتجه الى درس علم النفس — البسيكولوجيا في الأعصر الحديثة ، كما أنه أخذ يبتعد عن درس المنطق حالاً بعد حال) (١) .

وظهر الفرق جلياً ، بعد هذا اللقاح العلمي ، بين القديم والحديث من الناحية العلمية والأدبية أيضاً : فهذا صاحب كتاب نقد النثر مثلا قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي يتكلم على الجدَل والمجادلة فيقول : (وللعلل وجوه :

منها اعتبارها ، فإن اطردت في معلولاتها صحت ، وان قصّرت عن شيء من ذلك عُلم أنها غير صحيحة ، ومثال ذلك أن الحركة لما كانت علة المتحرك كان قولنا اذا سئلنا عن الجسم المتحرك : ما علة حركته ؟ فقلنا : حلول الحركة فيه ، قولاً صحيحاً ، لأنه يطرد في معلولاته ، ويوجد في كل جسم متحرك ، فإما سُئلنا عن العلة في حركة الجسم ، فقلنا لأنه جسم ، كان ذلك باطلاً ، لأنه قد تكون أجسام لا حركة فيها .

---

(١) تاريخ الفكر العربي ص ٢٢ و ٢٣

و (منها) أن تكون العلة في صحة الشيء هي العلة في بطلان ضدّه ، اذا كان ضداً لا واسطة له ، وقد مضى تمثيل ذلك .

(ومنها) أن العلة في الشيء اذا كانت من اجتماع شيئين او اكثر من ذلك ، لم تكن واجبة إذا انفرد بعض تلك الأشياء ...

و (منها) أن العلة إذا كانت مأخوذة مما يوافق الخصم فيه ، فلا مطعن له فيها ... فإذا كانت العلة مأخوذة مما يخالفك فيه ، وأنه لا سبيل لك الى تعريفه صحتها إلا بعد أن تصحح عنده المقامات التي أوجبتها .. الخ (١)

ألسنا نجد في هذا تفكيراً علمياً متأثراً - فيما تأثر به - بالمنطق اليوناني ؟ ألسنا نجد فيه ما يذكرنا قول الأستاذ ألفرد جيوم :

(غير أن المسلمين لم يلبثوا كثيراً راضين بترك خصومهم ، مستأثرين كل الاستئثار بأساليب الجدل المنطقي الاغريقي ، فأخذوا يتعودون تدرج أسلوب التفكير الذي كان معروفاً في كتابات الاغريق والسوريين) (٢) .

ولننظر الى اثر المنطق العلمي في مثل أبي الثناء محمود بن أبي القاسم الأصفهاني (ت ٧٤٩ هـ) (لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً من الجهة الأخرى ، وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة ، لا أمنع أن به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا ، أو من أنواع وأجناس أخرى) . قال الأستاذ أحمد زكي باشا : (للأصفهاني ، وهو بمصر ، فضل السبق على كرستوف كولومبس - وهو بالأندلس - لأنه قال بهذه النظرية قبله بقرن ونصف قرن ، وللأصفهاني فضلٌ أكبر على مكتشف أمريكا ، لأنه تخيل وجودها بقوة الفطنة والاستدلال ، وأما كولومبس فتخيل فقط وجود طريق جديد يوصل للهند من جهة الغرب .. الخ) (٣) .

وللنظر الى أثر البحث العلمي العمل في مثل عمل رشيد الدين بن الصوري العالم النباتي (ت ٦٣٩) الذي وصفه ابن أبي أصيبعة بأنه كان يستصحب معه مصوراً ومعه الأصباغ

---

(١) نقد النثر لقدامة بن جعفر ص ١٠٥ و ١٠٦

(٢) تراث الاسلام طبعة مصر المعربة (The Legacy yslam of) ص ٢٤٨

(٣) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (ط ١٣٤٢ ص ٣١) ، وقد حققه أحمد زكي باشا .

والليق على اختلافها وتنوعها ، فكان يتوجه الى الموضع الذي به النبات . فيشاهده ويحققه ويريه للمصور في إبان نباته وكماله ، ثم في حال ذراه ويبسه فيصوره بالدقة في كل طور من أطواره بلونه ، ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ..) (١)

وهذا أبو تمام مثلاً (يختلف عمن تقـــدمه ومن عاصره من الشعراء في تصوره للشعر نفسه ، وفي شدة أخذه نفسه بتجديد المعاني ووحدة القصيدة ، وفي كلفه بوصف الطبيعة ، وميله الى المعاني الفلسفية يضمنها شعره أيّاً كان الموضوع الذي ينظم فيه . وقد راع ابو تمام معاصريه بما ابتدع في الشعر ، ولم يفرغ الناس بعد من الجَدل في محاسن شعره وعيوبه ، وهو شعر نلحظ الاثر اليوناني ماثلاً فيه من غير مراء) (٢) .

ولننظر الى علم من علوم الدين كالحديث مثلاً كيف اخذت الطريقة العلمية تحفه من كل جانب فتصرف زيفه وتبين صحيحه ، بعد ان ظهر فيه من (الوضع) ما ظهر ، فقد طالب المحدثون :

١ – بإسنـاد الحديث ، وهو كما قال ابن حزم : (نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم مع الاتصال) (٣) .

٢ – وعرفوا (بالجرح والتعديل) الرواة الثقاة وغيرهم .

٣ – وقسموا الحديث الى متواتر وآحاد ، والأول (ما نقله من يحصل العلم بصدقهم ضرورة بأن يكونوا جميعاً – لا يمكن تواطؤهم على الكذب – عن مثلهم ، من أوله إلى آخره . ويجب العمل به من غير بحث عن رجاله) (٤) ، والآحاد ما ليس كذلك . وجعلوا للحديث أنواعاً مردها الى ثلاثة : صحيح ، وحسن ، وضعيف ...

٤ – وعنوا بالناسخ والمنسوخ (٥) .

---

(١) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢١٩

(٢) مقدمة في البيان العربي للعليم طه حسين ، وهي مقدمة لكتاب نقد النثر لقدامة ابن جعفر ص ١٢

(٣) قواعد التحديث للمرحوم الاستاذ جمال الدين القاسمي ص ١٨٥

(٤) ص ١٢٨

(٥) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٩

٥ – وكانت لبعض المحدثين ملكة يميزون بها الحديث ، وذلك مما يدل على استحكام الذوق العلمي .

رد توهم : قال الأستاذ هرنشو F. C. Hearnshaw في كتابه (علم التاريخ) : فالتاريخ ابتدأ عندهم (يعني العرب) كما رأينا فرعاً من علم الحديث ، فكان حرياً أن يتأثر بطريقة المحدثين في جمع الرواية التاريخية ونقدها ، فكان أهل السير والمغازي والاخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها الى مصدرها الاصلي ، وهو عادة شخص عدل عندهم له علم مباشر بالواقعة المروية كأن يكون عاينها أو اشترك فيها ، كما كانت الحال في رواة أخبار السيرة والاسلام ، أو أخذها من بعض مظانها ككتاب قديم ضاع ، أو من بعض أهل البادية ، وتلك كانت الحال في رواية اخبار الامم القديمة والتي قبل الاسلام ، فكان النقد عندهم ، والجرح والتعديل كما يسمونه ، ذاتياً منصباً على الرواة ، لا موضعياً منصباً على المرويات...) (١) وعندنا أن هذا القول صحيح الى حدّما ، واذا كان الحديث أصلاً في التاريخ ، فلنسمع الاستاذ الجليل السيد محمد الخضر حسين يدفع مثل هذا التوهم بقوله : (لم يقف العلماء عند نقد الحديث من حيث سنده بل تعدوا الى النظر في متنه فقضوا على كثير من الاحاديث بالوضع وان كان سندها سالماً ، إذ وجدوا في متونها عللاً تقضي بعدم قبولها .

ومن هذه العلل مخالفة الحديث لصريح القرآن كحديث مقدار الدنيا وأنها سبعة آلاف سنة ، فإنه لا يثبت أمام قوله تعالى : « ويسألونك عن الساعة أيّان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلا هو » ، وحديث : ولد الزنا لا يدخل الجنة ، فإنه باطل ، ومن وجوه الحكم عليه بالبطلان معارضته بقوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . ويدخل في هذا السبيل حديث : (لم يبعث الله نبياً إلا وهو غريب في قومه) فإنه مخالف لقوله تعالى : « إنا أرسلنا نوحاً الى قومه » وقوله « والى عاد أخاهم هوداً » وقوله « والى ثمود أخاهم صالحاً » .

ومن الوجوه القاضية بوضع الحديث مناقضته للسنة الصريحة المسلمة ، كالأحاديث التي تروى في فضل من اسمه احمد أو محمد ، وأن كل من يسمى بأحد هذين الاسمين لا يدخل

(١) علم التاريخ للأستاذ هرنشو ترجمة وتعليق الاستاذ عبد الحميد العبادي ص ٤٣

النار . فوجه القضاء عليها بالوضع انها جاءت على خلاف ما هو المعروف في الدين من ان النار إنما يجار منها بالاعمال الصالحة لا بالاسماء والالقاب .

ومنها مخالفته للمحسوس كحديث (الباذنجان شفاء من كل داء) ، فهو باطل بحجة ان المشاهدة تقضي بأن كثيراً من الامراض يزيدها الباذنجان شدة .

ومنها اشتماله على بعض المجازفات التي يرتفع عنها كلام النبوة كحديث (من قال : لا إله إلا الله خلق الله من تلك الكلمة طائراً له سبعون الف لسان لكل لسان سبعون الف لغة يستغفرون الله له) .

ومنها سماجة الحديث وكونه مما يسخر منه كحديث (لا تسبوا الديك فإنه صديقي) وحديث (الديك الابيض الافرق حبيبي وحبيب حبيبي جبريل) وحديث (لو كان الارز رجلا لكان حليماً » .

ومنها تضمنه خبراً يشهد التاريخ الصحيح ببطلانه كحديث وضع الجزية عن اهل خيبر الذي قرنه واضعه بشهادة سعد بن معاذ . فمن وجوه تفنيد هذا الحديث أن سعداً توفي في غزوة الخندق وكانت قبل فتح خيبر ، ثم إن الجزية لم تشرع لعهد خيبر ولم تكن معروفة للصحابة ولا للعرب ، وإنما نزلت بعد عام تبوك .

ومن امثلة هذا حديث (اتقوا البرد فإنه قتل اخاكم ابا الدرداء) فهذا حديث لا أصل له . ومن أدلة وضعه أن ابا الدرداء عاش بعد النبي عليه الصلاة والسلام زمناً غير قريب .

ومنها تضمنه امراً شأنه ان تتوفر الدواعي الى نقله ويصرح الحديث نفسه بأنها وقعت في مشهد عظيم من الصحابة ، ثم لا يشتهر ولا يرويه إلا واحد . وقد ضرب المحدثون من من امثلة هذا النوع رواية بعض الطوائف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطى الخلافة علياً رضي الله عنه في غدير خم حين رجوعه من حجة الوداع بحضرة جم غفير أزيد من مائة الف . وساق بعض المحدثين من امثلة هذا ايضاً حديث ردّ الشمس لعلي عليه السلام قد ذكر في روايته ان الواقعة كانت مشهودة للناس ؛ مع انه لم يشتهر حديثها ولم تعز روايته إلا لام سلمة .

ومنها مجيئه على خلاف مقتضى الحكمة المتفق عليها بين ذوي العقول السليمة كحديث (جور الترك ولا عدل العرب) فإن الجور مذموم على الاطلاق ، كما ان العدل محمود في كل حال .

ومنها ادعاء احد رواته انه ادرك من العمر فوق ما جرت به سُنة الله في الخليقة حتى لقي من تقدمه بزمن بعيد وتلقى عنه ، كالاحاديث التي رواها الرتن الهندي مدعياً الصحبة ولقاء النبي عليه الصلاة والسلام وهو لم يظهر إلا بعد ستمائة سنة من الهجرة . ومن هذه الشاكلة ما يزعمه المتصوفة الملقبون بالقلندرية من صحبة عبد الله الملقب بعلم بردار ويدعون بقاءه الى قريب من المائة السادسة بعد الهجرة ، واليه ينسبون خرقتهم ، وصنعوا في ذلك اسناداً متصلاً .

ولا ينبغي الاستناد في العمل بالحديث – الذي لم يثبت علماً ورواية – الى الرؤيا التي يفهم منها جواز العمل به . كما حكى عن نور الدين الخراساني انه كان عندما يسمع الاذان يقبّل إبهامي يديه ، ويمسح بظفريه اجفان عينيه عند كل تشهد ، ولما سُئل عن ذلك قال : كنت افعله من غير رواية حديث ، ثم تركته ، فرأيته صلى الله عليه وسلم مناماً وأمرني بالعود الى المسح (١).

...

احتلت طريقة الاسناد وما اليه مثل كتب التاريخ والادب والمال وقد تكون في ذلك ايسر شأناً ، فإذا اردت ان تعرف الفرق بين الغنيمة والفيء مثلاً في كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي (ت٢٠٣) أتى لك بالاسناد حتى يقول (سمعنا ان الغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة ، وان الفيء ما صولحوا عليه)(٢) ، بل إن من كتب الهزل البريئة ما يعتمد على الاسناد ككتاب التطفيل للخطيب البغدادي (ت٤٦٣).

ولننظر طرق الاخذ والتحمل في اللغة وهي كما قال المرحوم الاستاذ الرافعي : الاصطلاحات التي تثبت بها اللغة لمن يأخذها ، وتصح روايته عند الاداء (وهي ايضاً من اوضاع المحدثين) نجد دقة تدعو الى الاعجاب ، وهي :

١ – السماع من لفظ الشيخ او العربي . وللمحتمل بهذه الطريقة عند الاداء صيَغ ، تتفاوت بحسب منزلة الرواية ، فأعلاها أن يقول : حدثني او حدثنا فلان ، ثم اخبرني او

---

(١) مقدمة الاستاذ محمد الخضر حسين لكتاب المغني عن الحفظ والكتاب فيما لم يصح فيه شيء من الاحاديث للامام ابي حفص عمر بن بدر الموصلي الحنفي (ت ٦٢٣) ص ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ .

(٢) الخراج ط ١٣٤٧ ص ١٧

اخبرنا فلان ، ثم قال لي فلان ، ثم قال فلان (بدون الاضافة الى نفسه) ، ومثله زعم فلان ، ويلي ذلك قول الراوي عن فلان ، ومثلها ان فلاناً قال .

وهذا في اللغة والخبر ؛ اما في الشعر فيقال : انشدني وانشدنا ، وقد تستعمل فيه بعض الاصطلاحات ايضاً .

٢ – القراءة على الشيخ ، ويقول عند الرواية : قرأت على فلان .

٣ – السماع على الشيخ ، بقراءة غيره ، ويقول عند الرواية : قرأ علي فلان ، وانا اسمع ، او اخبرني قراءة عليه وانا اسمع .

٤ – الاجازة : وهي في رواية الكتب والاشعار المدونة .

٥ – المكاتبة : وذلك ان يكتب الرواية الثقة الى غيره ابياناً او خبراً ، فيروي ذلك عنه ..

٦ – الوجادة : وهي ان يسوق ما يرويه على انه وجده في كتاب به ، وهذا هو اضعف وجوه الاخذ ..

وقال الرافعي بعد ان سرد ما تقدم : (هذه هي طرق الرواية ، وكان الرواة الى آخر القرن الرابع يبالغون في بيانها ، ويقرنون كل خبر بطريقته ، انتفاء من الظنة ، وقياماً بحقوق العلم ، وحياطة لهذا الادب الذي اصطلحوا عليه ، ثم ضعف الامر في القرن الخامس ، ثم صار العلم كله (وجادة) وعاد اول هذا الامر آخره [1] .

قال الاستاذ هرنشو : (واذا كان الاسناد عندهم – أي المؤرخين العرب الذين قلدوا المحدثين في وقتهم – اساس نقد الاخبار فقد كان اساس ضبطها هو التوقيت الدقيق لها بالسنين والشهور والايام ، وهو ضابط انفردوا به عن نظرائهم عند اليونان والرومان واوربة في العصور الوسطى . قال المؤرخ الانكليزي (بكل)[2]: « ان التوقيت على هذا النحو لم يعرف في اوربة قبل عام ١٥٩٧ » على ان نظام التوقيت بدأ ضعيفاً عندهم ، فكثيرٌ من حوادث الفتوح الاولى قد وقع في توقيته خلط شديد واختلاف كثير ، ثم تكمل على مر الزمن بتعدد طرق الخبر الواحد وبالاخذ عن المصادر الرسمية ...

وقد اتبعوا طريقة علماء الحديث كذلك في تدارس كتب التاريخ وتلقيها عن مؤلفيها

---

(١) تاريخ آداب العرب ص ٣٣٣

(٢) Buckle انظر كتاب Arabic Historians لمرجليوث ص ١٧

بالسند المتصل قراءة وسماعاً وإجازة ؛ فكتاب الاصنام مثلاً تتصل سلسلة روايته عن ابن الكلبي من عام ٢٠١ الى قريب من عام ٥٠٠ ، ومثل ذلك يقال في مغازي الواقدي ، وكثير غيره من كتب التاريخ . وهي مبالغة محمودة في المحافظة على النصوص التاريخية الهامة والكتب المعتبرة أمهات وأصولاً (١).

وقال بعد ان بيّن اوجه النقص التي رآها في طريقتهم : (على انه مهما قيل في قصور طريقتهم من الناحية العلمية ، فحسبهم انهم خلفوا للمؤرخ الحديث ثروةً تاريخية طائلة ، يستطيع ان يتـــدارك في صياغتها ما فاتهم ، وان العلم الحديث يسجل لهم انهم اول من ضبط الحوادث بالاسناد والتوقيت الكامل ، وانهم مدوا حدود البحث التاريخي ، ونوعوا التأليف فيه واكثروه الى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدمهم او عاصرهم من مؤرخي الامم الاخرى ، وانهم اول من كتب في فلسفـــة التاريخ والاجتماع وتاريخ التاريخ ، وانهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ وآخره ، وهو الصدق في القول والنزاهة في الحكم) . (٢)

• • •

وبعد فانا نرجو ان نكون قد بينا الى حد ما الطريقة العلمية في تراث العرب ، ونرجو ان نزيدها تبياناً يعتمد على خطة صاحبه التي ارتضاها ، وذلك فيما عرضناه في الكلمة المتممة القادمة عن الغزالي وابن الهيثم وقصدنا بذلك تذكير ابناء مجدنا العظيم ببعض ما كان لآبائهم من دقة في البحث وسداد في التفكير ، ليعرفوا فضلهم المتقدم فلا يؤخذوا بفضل الغرب المتأخر .

❀ ❀ ❀

(١) عـــلم التاريخ للأستاذ هرنشو (J.C. hearnshaw) ترجمة وتعليق الاستاذ عبد الحميد العبادي ص ٤٤

(٢) ص ٤٥

الغزالي وابن الهيثم

اشرتُ بالبحث المتقدم وبعرض إجمالي الى نصيب الثقافة العربية من الطريقة العلمية ، وهأنذا أعرض الآن شيئاً من اقوال فيلسوف تبين طريقته في التفكير ، وشيئاً من أقوال عالم تبين طريقته في التحقيق ، وقد رأيت ان يكون الفيلسوف ـ ابو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ ١١١١ م) الذي قد يكون اجدر من سواه (بتمثيل) الفكر الاسلامي في البحث عن المعرفة ، وقد جعل العليم كريم عزقول عنوان كتابه ـ ومعظمه عن الغزالي ـ : العقل في الاسلام ، ورأيت ان يكون العالم ـ ابو علي الحسن بن الهيثم (ت بعد ٤٣٠ هـ) الذي جعل له هارت Hart في كتابه اعاظم الطبيعيين The greatphysits مقاماً خاصاً وقرنه بأعلام النوابغ العالميين (١) .

= ١ =

حرص الغزالي على المعرفة دهراً طويلاً فلنسمعه يقول : (ولم ازل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد اناف السن على الخمسين ، اقتحم لجة هذا البحر العميق واخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، واتهجم على كل مشكلة ، واتقحم كل ورطة ، واتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف اسرار مذهب كل طائفة ، لأميّز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا واحب ان اطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلا واريد ان اعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا وصوفياً إلا واحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا واترصّد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا واتجسس وراءه للتنبه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته)(٢) . وهكذا نجد الغزالي يحصي ويستقصي ، ويجول بين العقائد والمذاهب ، ويقف على الزندقة والرشاد ، حتى يبلغ ما يريد ، فيطمئن الى الثقة به ، وهو الى ذلك متعطش تعطشاً : (وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور رأيي وديدني من اول امري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا

(١) الامالي م ٦ ج ٣ ص ٣٩ من بحث للأستاذ انيس المقدسي .

(٢) المنقذ من الضلال ص ٥ ـ ٧

في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي حتى انجلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد بسن الصبا ، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام . وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : (كل مولود يولد على فطرة الاسلام فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه) ، فتحرك فتحرك باطني الى طلب حقيقة الفطرة الاصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، واوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات (١)) .

وهو بعد هذا يوضح غايته ويبين وسيلته ، فلا يبقى على شكه في الصواب بعد حلول اليقين الذي لا يتزعزع مكانه : (انما مطلوبي العلم بحقائق الامور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟ فظهر لي ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطإ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وانكاراً . فإني اذاً علمت ان العشرة اكثر من الثلاثة ، فلو قال قائلاً : لا بل الثلاثة اكثر بدليل اني اقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم اشك بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه . فأما الشك فيما علمته فلا .

ثم علمت ان كل ما لا اعلمه على هذا الوجه ولا اتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا امان معه . وكل علم لا امان معه فليس بعلم يقيني)(٢) .

أفرأيت هذا الفكر الراجح وهذه الغاية الرفيعة ، وهذا المثل الذي كثيراً ما انصرف عنه الناس الى ما لا يقين معه في امر من امورهم لملابسة رافقته لا صلة لها به ، وكثيراً ما تصرف الغفلة ذويها عن نقد آراء باحث اصاب مرة واخطأ الف مرة !.

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٧ و ٨ ، اما الحديث النبوي فنصه كما رواه البخاري : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه .

(٢) ص ٨ و ٩

فلا عجب بعد هذا اذا ذم الغزالي تقليد العامة ، بل تقليد الخاصة الذين (أضافوا الى تقليد المذهب تقليد الدليل) (١) .

ولكن علام يُعول الغزالي للوصول الى المعرفة ، اتقنعه الحواس ؟

فلنستمع له يقول مشككاً فيها : (من اين الثقة بالمحسوسات واقواها حاسة البصر ، وهي تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ؟ ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف انه يتحرك ، وانه لم يتحرك بغتة ودفعة ، بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف . وتنظر الى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على انه اكبر من الارض في المقدار . هذا وامثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل الى مدافعته (٢)

ام يقنعه العقل بعد إخفاق الحواس في الاقناع ؟

فلنستمع له يقول : (فلعل وراء العقل حاكماً آخر ، اذ تجلى كذب العقل في حكمه كما تجلى حاكم العقل ، فكذب الحس في حكمه . وعدم تجلي ذلك الادراك لا يدل على استحالته ... أما تراك تعتقد في النوم أموراً وتتخيل احوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك اصل وطائل ؟ فبم تأمن ان يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس او عقل هو حق بالاضافة الى حالتك ؟ لكن يمكن ان تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك ، كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالاضافة اليها ! فإن اوردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت ضلالات لا حاصل لها ، او لعل تلك الحالة ما يدعيها « الصوفية » انها حالتهم ...) (٣)

هكذا دام فيلسوفنا قريباً من شهرين (على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم المنطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على امن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ؛ بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح اكثر

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ص ٧٠

(٢) المنقذ ص ١١

(٣) ص ١٢

الذي اتخذ الشك وسيلة للوصول الى اليقين ، وشك في وجود نفسه حتى آمن به اعتماداً على انه يفكر فهو موجود .. الخ [٢] (ولقد كان فضل الغزالي على ديكارت في انه عرف بشيء من خارج العالم الذي شك فيه ، اما ديكارت فعرف ببعض ما شك فيه ، فقد جعل سبيله الى المعرفة سبيلاً ايجابياً ينبعث من نفسه) [٣] .

(ان التأثير العظيم الذي تركه الغزالي في التفكير الاسلامي ، يرجع في الدرجة الاولى الى انه كان المفكر الاول والوحيد الذي لم يكتف ، مثل علماء الكلام ، باقتباس عدة مباحث متفرقة للفلاسفة ومحاولة نقض بعض آرائهم ، بل قام يسعى لتهديم كل البناء الذي انشأه الفلاسفة الاسلاميون على اساس الفلسفة اليونانية ، فشرح لهذه الغاية جميع نظرياتهم من الوجهة العامة ، وحاول اظهار ضعف براهينها وفساد نتائجها ، مستنداً في كل ذلك على نظرية خاصة له في المعرفة تدل على دقة المشاهدة وعمق النظر وقوة التفكير) [٤] .

- ٢ -

اما الحسن بن الهيثم فهو عالم في نواميس النور مؤلفات عديدة ، منها كتاب المناظر ، وجوهر البصر ، والمرايا المحرقة الدوائر ، والمرايا المحرقـــة القطوع ، واختلاف النظر ، واضواء الكواكب ، وضوء القمر .

وهو اول من وضع للعين تشريحاً مدققاً فيـه ، قال مايرهون في (تراث الاسلام) عنه : (انه اول من وضع اساس التصوير الشمسي بالطريقة التي استخدمها لعكس صورة الشمس عند الكسوف على جدار) [٥] .

نقلت في القرن الثالث عشر مباحث ابن الهيثم الى اللاتينية ، وعليها بنى العالم الالماني فيتلو Viitelo تجاربه واحكامه ، واعظم اقسام كتابه حجماً واهمية ، مأخوذ من كتاب

(١) المنقذ ص ١٣ و ١٤

(٢) مقال عن الطريقة Discour-de la Methode ص 34

(٣) عبقرية العرب للعليم عمر فروخ ص ١١٠ و ١١١

(٤) مقدمة المنقذ من الضلال للعليمين صليبا وعياد صفحة ك ، ل .

(٥) الامالي م ١ ج ٣ ص ٦٩ من بحث للأستاذ انيس المقدسي .

المناظر لابن الهيثم. ثم اعتمد على (فيتلو) روجر باكون الانكليزي (ت ١٢٩٢م ٦١٩ هـ) واضع اساس العلم التجريبي . ويظهر اثر ابن الهيثم في مباحث ليوناردو فينيشي ، ثم في نظريات يوهان كبلر (ت ١٦٣٠ م و ١٠٤٠ هـ) ومن تبعه [١] .

عرض ابن الهيثم طريقته العلمية في كتابه (المناظر) عند البحث في كيفية الابصار واختلاف العلماء فيه فقال :

ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات وتصفح احوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار ، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لايشتبه من كيفية الاحساس ، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج ، (ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء) ، الى ان يقول : (ولعلنا ننتهي بهذا الطريق الى الحق الذى به يثلج الصدر ، ونصل بالتدرج والتلطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات . وما نحن بعد ذلك بُراء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر ما لنا من القوة الانسانية ، ومن الله نستمد العون في جميع الامور [٢] .

ويذهب مؤلف كتاب (الحسن بن الهيثم وكشوفه البصرية) الى أبعد من وصف خطته بالخطة العملية ، فيجعله من عمق التفكير بحيث ادرك ما قال به من بعده (ماك) و (كارل بترسون) وغيرهما من فلاسفة العلم المحترمين في القرن العشرين ، اذ ادرك الوضع الصحيح للنظرية العلمية وصفتها الحق بالمعنى الحديث ، ويستشهد بما رواه البيهقي عنه قال : (وكان ابن الهيثم يقول في بعض رسائله : تخيلنا اوضاعاً ملائمة للحركات السماوية فلو تخيلنا اوضاعاً اخرق ملائمة ايضاً لتلك الحركات ، لما كان في ذلك التخيل مانع ، لانه لم يقم البرهان على انه لا يمكن ان يكون سوى تلك الاوضاع ، اوضاع أخر ملائمة

(١) الامالي وعبقرية العرب ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) نقل ذلك عن كتاب (الحسن بن الهيثم وكشوفه البصرية لمصطفى نظيف بك) الاستاذ قدري طوقان في مقال نقلته مجلة التمدن الاسلامي (م ١٣ ج ٢٣ ص ٣٦٧) عن (الاديب) .

مناسبة لهذه الحركات) . وهنا يقرر ابن الهيثم ان نظرية بطليموس في الحركات السماوية التي تخيلها الاقدمون لا يوجد برهان يحتمها ، وعلى ذلك يأخذ بهذه النظرية اذا كانت ملائمة للواقع من تلك الحركات ، ويجيز قيام نظرية اخرى ، ما دامت هي ايضاً تلائم وتناسب الواقع المعلوم . وهو في تفكيره هذا قد اجاز استبدال النظرية الفلكية الحديثة بنظرية بطليموس قبل ان يضطر العلم الى ذلك بقرون ؛ بل هو قد اجاز الموقف الذي يقفه علم الطبيعة الحديث في الوقت الحاضر ازاء نظرية الحكم والنظرية الموجبة مثلاً (١) .

• • •

ان البيئة التي عاش فيها ابن الهيثم وامثاله بيئة ترحب بالعلم كما قلنا ، ولا ننكر وجود بعض الغلاة فيها الذين يسيئون الى الدين نفسه حينما يحاولون ان يطفئوا نور العلم بأفواههم . ولا بد ان يصحب الجديد من يستنكره ويحاول ان يصد الناس عنه صدوداً ، ولكن أولئك الغلاة على ذم جهلهم اهون شأناً من جهلاء اوربة ؛ بل من كثير من قادة الرأي فيها ، وهذا غاليله حاول عبثاً (ان يبرهن على وجود الاقمار من حول المشتري بأن يريها للمشككين من خلال منظاره ، فإنهم كانوا لا ينظرون فيه على اعتقاد ان النظر من خلاله كفر ، واذا نظروا ورأوا الاقمار بالفعل ، انكروها على اعتبار انها خيالات يصورها الشيطان فيتجنبونها حتى لقد اعلن الاب كلافياس Clavins انه لكي ترى اقمار المشتري ، صنع الناس آلات تخلق الاقمار من حوله وهماً . وعبثاً حاول (غاليلو) مرة اخرى ان يحمي ذمار الحق الذي كشف له عنه بكتابات وجهها الى كاستلي Castelli البنديكتي ، والى الغرناندوقة كريستين Christine اظهر فيها ان تفسير الآيات المقدسة تفسيراً حرفياً لا يجب ان (٢) يطبق على حقائق العلم . فلم يفز من ذلك بجواب ، اللهم إلا بفكرة ان مثل البراهين التي بثت في كتبه تلك لا تزيده الا مقتاً واقتناعاً بهرطقتـــه ، وانه اشد افساداً من (لوثر) ومن (كالفن) معاً .. الخ (٣)

---

(١) من مقال الاستاذ طوقان المتقدم .

(٢) الصواب منطقياً : يجب ألا .

(٣) بين الدين والعلم تأليف الاستاذ اندرو ديكسون وايت ، تعريب الاستاذ اسماعيل مظهر ص ٦٠ و ٦١ وفيما بعدهما اشد مما ذكرنا .

ثروتنا العلمية وفهارسها

بعض ما تقدم أشرتُ إلى ثروتنا العلمية قيمة ، فبدا إلي أن أشير إليها الآن كثرة ، ورأيت أن تكون هذه الاشارة كالكلمة قد تعبر عن عظيم لا يمتد إليه الطرف كالبحر ، ولا يحده خيال كالزمن ، ولئن لم أفعل ذلك فما أكثر ما يمد من كتب العربية شرقية وغربية في عصور زاهية زاهرة بالحضارة الاسلامية أثمرت فيها الأفكار والعواطف كثيراً من النافع الثمين .

وقد نوفي على القصد :

١ — بومضات من تلك العصور تشير إلى ما أردنا من ذلك الثراء العلمي .

٢ — ثم بكلمات على النكبات الكثيرة التي منيت بها الثقافة الاسلامية .

٣ — ثم بفهارس تراثنا العلمي والأدبي .

— ١ —

(في سنة ٢١٠ أمر المأمون باحصاء من في البصرة من العلماء والتلاميذ ، فبلغ عدد العلماء سبعمائة ، وعدد تلاميذهم أحد عشر ألفاً ، فلما وقف المأمون على ذلك امتلأ قلبه سروراً ، وأحب أن يقوم بنصيبه في تلك الحركة العلمية بتنشيط المحتاجين من أهل العلم ، فأمر بتخصيص رواتب لهم ، وأحب أن يبعث إليه بنسخ من مؤلفات العلماء ، فجمعوا له ما ألفوه من الكتب العلمية المختلفة في مدة عشرين سنة ، فكانت — على ما ذكره بعض المؤرخين — أكثر من مائتي ألف مؤلف بين صغير وكبير ، فضمها المأمون إلى مكتبته) (١) . فتأمل في ذلك العدد من الأساتذة والتلاميذ والكتب في بلد من الاسلام في عصر الاقبال على المعرفة . ويجري هذا المجرى خبر آخر في عهد المأمون أيضاً : (ذلك أن النضر بن شميل التميمي المتوفى سنة ٢٠٢ ، حينما أراد مغادرتها اجتمع لتوديعه ألف نحوي وهم يبكون ، فقال

(١) الهداية الاسلامية ، المجلد ١٤ ، ج ١ و ٢ ، ص ٢٣ و ٢٤ من مقال عن البصرة للأستاذ عبد العليم الطحاوي .

لهم : ما يبكيكم ؟ والله لو وجدت قوتي عندكم ما تركتكم) [1] . ولا بد أن يكون لهذه الكثرة آثارها .

ومما يدل على العناية بالكتب أنه (كان من جملة شروط معاهدة المأمون مع الامبراطور ميخائيل الثالث ، أن يتخلى له عن إحدى مكاتب القسطنطينية) [2] .

وهذا (الصاحب بن عباد كان وزيراً لمؤيد الدولة ابن بويه ، ولأخيه فخر الدولة بعد مؤيد الدولة ، وكتب اليه الملك نوح بن منصور الساماني يعرض عليه الوزارة في مملكته فأجابه معتذراً وكان من جملة اعذاره استلزام نقل كتبه لأربعمائة حمل) [3] .

ومن ادلة تقرير الكتب والحرص على جمعها أن (أرسل الخليفة عبد الرحمن الى القسطنطينية ، وكان عاهلها القيصر رومانوس ، والي العراق والحجاز والشام ومصر وإفريقية ـ من يشتري له الكتب ويحصل له من ذخائرها وأصولها المهمة ، حتى قيل ان عاهل القسطنطينية وجد من أسباب الحظوة لدى هذا الخليفة أن يهدي اليه نسخة بديعة من كتاب الحشائش الذي الفه ديسقوريدس العالم الثاني المشهور ، وقد كانت مكتوبة بالخط الاغريقي مصورة فيها الحشائش كلها بالذهب ، وأهداه كتاباً آخر لهرشيوس صاحب القصص ، وهو تاريخ للروم في أخبار الدهور وقصص الملوك وطبقات الاطباء في كتب أخرى وكان ذلك سنة ٣٣٧ . . .) [4]

ومن ذلك ان الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦) جرى في طريق أبيه وأربى على الغاية ، فكان جماعا للكتب في أنواعها مالم يجمعه أحد قبله من الملوك ، حتى بلغ عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعين ، في كل واحدة عشرون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين ، وكان يبعث الى الاقطار في شراء الكتب أناساً من التجار ، وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج ، وكان نسبه في بني أمية ، وأرسل إليه بألف دينار ذهباً ، فبعث إليه بنسخة من قبل أن يخرجه إلى العراق . وله من أمثالها

---

(١) الهداية الاسلامية ص ٢٥ ، ويبدو أن فاقته وفاقة مودّعيه كانت قبل أن يقوم المأمون بتنشيط المحتاجين من أهل العلم كما تقدم ، ولاجرم ان هذا من أدلة الاقبال على العلم .

(٢) حاضر العالم الاسلامي ، ج ١ ص ١٤٩ نقلا عن الأمير شكيب أرسلان عن الاستاذ الأمريكي درابر Drapper .

(٣) حاشية ص ١٥٠ لتعليق الأمير شكيب .

(٤) تاريخ آداب العرب للرافعي ج ٣ ص ٢٨٣ .

أشياء ، وجمع في داره الحذّاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، وقد حققوا أنها بلغت سبعين مكتبة ، إلا ما يذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء . (١)

ومن ذلك خزائن الكتب الكثيرة المستقلة أوالتي في المساجد والمدارس والمنازل العامرة بعشرات الألوف من الكتب الثمينة (٢) التي تدل على اتخاذ الكتب أعلاقاً يتنافس فيها المتنافسون من ملوك وأمراء وعلماء وأدباء ، وقداستدعى ذلك كثرة حوانيت الوراقين ، (وها هو ذا اليعقوبي يحدثنا بأنه كان يوجد في بغداد وحدها في زمانه ، أكثر من مائة من حوانيت الوراقين وبائعي الكتب ...) (٣) .

- ٢ -

إذا ذكرنا ما تقـــدم وما كان في موضوعه من أخبار العلم والعلماء والكتب ، رأينا مانعرفه من كتبنا قليلاً ، وذلك لما أصاب تراث الكتب العربية من نكبات تلو نكبات :

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ج ٢ ص ٢٨٥

(٢) اقرأ الكلام على نشأة المكاتب والعناية بحفظها في (خطط الشام) للأستاذ محمد كردعلي ، م ٦ ص ١٨٨ — ١٩٦ ، وما كتبناه في (حضارتنا) ص ١٩٣ - ١٠٠ . وأوسع من ذلك ما كتبه عن خزائن الكتب الأستاذ الفيكنت فيليب ذي طرّازي في كتابه (خزائن الكتب العربية في الخافقين) في ثلاثة وثلاثين فصلاً .

(٣) المستمع العربي المجلد الثاني ، ج ١٨ ص ١٠ ، من مقال في : (الكتب في أيام الخلفاء) بقلم هيوبرت بيرد ، ومن طريف ما ذكره مما يدل على التقليد في الخير قوله : وكان يوجد في ذلك العصر أيضاً ، كثير من المتظاهرين والمتعاظمين الذين كانوا يقتنون الكتب لمجرد السنة الشائعة . وهنا يحدثنا المقري (صاحب نفح الطيب ...) بقصة عالم من علماء قرطبة كان يريد شراء أحد الكتب النادرة ، وإذا برجل يزيد عليه في كل ثمن يعرضه ، مع أن ذلك الرجل اعترف بأنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، فلما سأله العالم عن سبب إصراره على رفع ثمن الكتاب ، أجابه الرجل بأنه أنشأ داراً للكتب ، وأنه يريد أن يجعلها أعجوبة من أعاجيب بلدته ، وأن في أحد رفوفها فراغاً لا يتسع إلا لهذا الكتاب الحسن التجليد ، وأنه يريد أن يقتنيه مهما كلفه من ثمن) . فلنتأمل كيف أصبحت المباهاة بوسائل العلم ولو كان أصحابها جهلاء .

منها نكبة بغداد بدخول التتار، فقد زحف إليها هولاكو على رأس جموعه التتار ودخلوها (ووضع السيف في أهل بغداد يوم الاثنين خامس صفر) [1]، ورمى التتار في دجلة جميع ما وجدوه من الكتب التي لا يحصرها العد حتى تكون جسر يعبر عليه فرسان الجيش، وتغير لون دجلة من الحبر ...) [2]، وكان مما تلف كتب دار الحكمة الشهيرة (وفيها كما قال ابن النديم: ما لا يحصر من الكتب النفيسة) [3].

ومنها ضياع الكتب التي كانت في (القصر) وفي (دار العلم) الفاطمية، (ذلك أن عدداً عظيماً من هذه الكتب قد بيع أو نهب أو حمل في النيل إلى الاسكندرية سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ — ١٠٦٩ م) وما بعدها، ويقول المقريزي إن عدداً غير قليل (من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليداً وغرابة) قد اتخذ من جلودها عبيدهم وإماؤهم نعالاً وأحذية، ثم أحرقوا أوراقها، زعماً منهم أنها تحوي كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم [4] — يعني أهل السنة —. وقصاري القول، فان الكتب التي كانت بمكتبة القصر ودار العلم إما أن تكون قد سرقت أو أغرقت في النيل، أو حملت إلى سائر الأقطار، أو آلت إلى الاحراق. أما ما تعرض منها للجو فقد سفت عليه الرياح التراب فصار تلالاً عرفت بتلال الكتب [4].

ومنها أن (ارتكبت اسبانيا النصرانية جريمتها البربرية الشائنة بتدمير تراث التفكير الاسلامي. ففي سنة ١٤٩٩ أمر الكردينال كمنيس — مطران طليطلة — بجمع الكتب والآثار العربية في غرناطة، وتنظيمها أكداساً في ساحات المدينة، واحتفل باحراقها «بعمل من أعمال الايمان» Auto dafé، ولم يستثن منها سوى ٣٠٠ من كتب الطب وهبت لجامعة «الكالا» (القلة)، وهلك في تلك المحنة معظم تراث الأندلس الفكري. — يختلف

(١) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٢٢٩.

(٢) التاريخ العام ترجمة الأستاذ رشيد بقدونس ج ٢ ص ٤١٨ وانظر (عجائب المقدور في أخبار تيمور) لابن عربشاه ...

(٣) الفهرست ص ١٩٣

(٤) الفاطميون للعليم حسن إبراهيم حسن ص ١٣٩ نقلاً عن الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٠٩

المؤرخون في تقدير عدد المخطوطات العربية التي ذهبت فريسة هذه الجريمة الشائنة ، فيقدرها بعضهم بأكثر من مليون ، ولكن كوندى [1] يقدرها بثمانين ألفاً ، وتقديره أرجح وأقرب إلى المعقول ، لأن المكتبة الأموية الشهيرة في قرطبة لم تزد طبقاً لأصح الروايات على ٦٠٠ ألف مجلد ، وقد بددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر ولم يجتمع في غرناطة مجموعة بهذه الضخامة ، وكانت تحتوي عدة مجموعات مختلفة خاصة وعامة ...

(ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على بقية يسيرة من الآثار العربية قبرت في أروقة قصر الأسكوريال المظلمة وفي بعض المكاتب العامة . وكانت المخطوطات العربية التي أودعت في مكتبة الاسكوريال الملكية تبلغ عدة آلاف حتى أواسط القرن السابع عشر . وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها في اسبانيا . ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس : ففي سنة ١٦٧١ شبت النار في الاسكوريال ، والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ولم ينقذ منه أكثر من ألفين ـ يقدر عدد الكتب التي هلكت في هذا الحريق بـ (٨٠٠٠) مجلد معظمها من المخطوطات العربية ـ) [2] .

وكان قبل ذلك في زمن الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) سبعون مكتبة فبددها الجهل قال ابن خلدون : ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر ، وأمر باخراجها وبيعها الحاجب ، واضح من موالي المنصور ابن عامر ، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنوة [3] .

ومنها نكبة طرابلس لما فتحها الصليبيون وإحراق صنجيل أحد أمرائهم كتب دار العلم فيها ، وأخذ الصليبيون بعض ما طالت أيديهم إليه من دفاترها وكتبها الخاصة في بيوتهم . واختلفت الروايات في عدد المجلدات التي كانت في خزانة بني عمار أدوار حكمهم في طرابلس وعلى أصح الروايات أنها ما كانت تقل عن مائة ألف مجلد ، وأوصلها بعضهم إلى ألف ألف ، وبعضهم إلى أكثر ... وابن الفرات هو ممن يقول بأن عدد ما كان في دار العلم هذه من الكتب نحو ثلاثة ملايين كتاب عندما أحرقها الصليبيون سنة ٥٠٣ هـ . والغالب أنه كان

---

(١) يعني Condè مؤلف Hidoire de Dommination ces Arabes en Espagne.

(٢) ملحق (السياسة) ٣ صفر ١٣٥٢ من مقال للأستاذ عبد الله عنان . وانظر إلى تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٣٥٥

(٣) تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٢٨٦

في طرابلس من الكتب الموقوفة غير دار العلم وقفت قبل بني عمار ، وأراد ابن القرات بهذه الثلاثة آلاف الألف عدد الكتب التي كانت في مكاتب طرابلس كلها) (١) .

ومنها (ما حمله من الكتب التتار في نوبة هولاكو ، وما أحرق في مدارس دمشق وجوامعها من أمهاتها ، فقد ذكر المؤرخون أنه امتلأت خزانة الكتب بمراغة بما نهبه هذا الطاغية من الشام والعراق وغيرهما ، وقد رما حملة بأربعمائة ألف مجلد (٢) .

ومنها ما حرق في فتنة غازان سنة ٦٩٩ ، وفي وقعة التيمورلنك سنة ٨٠٣ فان النار ظلت تحرق دور دمشق ومدارسها وجوامعها في الفتنة التيمورية ثلاثة أيام ، فذهب في هذين الحريقين وغيرهما ، كتب الضيائية والمدرسة العادلية وغيرها من المدارس .

ومن الخزائن التي بلغنا خبر دمارها في الحروب الصليبية خزانة أسامة بن منقذ أحد أصحاب قلعة شيزر فانها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة أرسل بها بعد أن أخذ عهداً من الصليبيين من دمياط إلى عكا في بطسة فنهبت ونهب معها ثلاثون ألف دينار قال إن ذهابها حزازة في قلبه ما عاش .

ومن مصائب الكتب ما وقع من حريق في دار صاحب حماة سنة ٦٨٧ ذهب فيه من الكتب ما لا يحصى .

... ولما لمعت في القرن السادس عشر شعله النهضة في إيطاليا أراد الباباوات اقتناء الكتب العربية ، فندبوا لذلك بعض العارفين من رهبان الموارنة وحملوا إلى رومية من أديار لبنان ما كان محفوظاً فيها من كتب الدين والعلم مما كان مكتوباً بالعربية والسريانية . وحمل يوسف السمعاني من لبنان (١٧٦٨ م) كتباً في ثلاثة

---

(١) خطط الشام ج٦ ص١٩٧، وقد أشار المؤلف إلى أن المجلد لا يتجاوز بضع كراريس من كراساتنا ...

(٢) لا جرم أن هذا من النكبات ، ولكن اذا آل أمر الكتب إلى السلامة خفت وطأة هذا النهب ، ونحو ذلك ماجمعه الاوروبيون من كتبنا ، قال الأستاذ كرد علي : (ومن المصائب التي أصيبت بها الكتب أن بعض دول أوربا ومنها فرنسا وحكومات جرمانيا وبريطانيا العظمى وهولاندة وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والاساقفة والمبشرين من رجال الدين ... بأثمان زهيدة ... (الخطط ج ٦ ص ١٩٨ و ١٩٩) .

مراكب إلى رومية ، فملأها بالمخطوطات العربية وغيرها فغرق منها مركبان ولا يقدر ما فيها بأقل من عشرات الألوف من المجلدات . .) [1] .

والله وحده العليم بما أفقدتنا هذه النكبات من تراثنا العلمي والادبي المجيد قال الاستاذ محب الدين الخطيب : (لولا هذه الكوارث وما تلاها من عصور الجهالة لبقيت لنا مؤلفات الخليفة الاموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك في أخبار العرب وأنسابها وأشعارها ولغاتها ، وهي مؤلفات كان يتحدث عنها العلماء ، وقرأ عنها ابن النديم بخط ابن مقلة عن أبي العباس ثعلب وشيوخه . ومن علماء عصر الوليد ابن يزيد بن عبد الملك وأهل ثقته أبو القاسم حماد بن سابور بن المبارك بن عبيد وأبو محمد جنادر بن واصل الكوفي . وبعد هذه الطبقة الهيثم بن عدي الطائي ، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي ، ومصعب بن عبد الله الزبيري ، والزبير بن بكار وأضرابهم وألوف ممن جاءوا بعدهم . كل عمل هؤلاء الآن يعد في حكم المفقود ، لانه أبيد بحماسة وغل وعداء لهذا التراث) [2] .

ولقد نجد في الكتاب الواحد من تراث الاجداد عناوين كثيرة لكتب لا ندري أين هي ، وهذا كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة رأى فيه الأستاذ محمد عبد الله عنان ثلاثة عشر عنواناً لكتاب مفقود وهي : كتاب الخطط للكندي ، وتاريخ مصر ، وكتاب الخطط لابن زولاق ، وتاريخ مصر أو أخبار مصر للمسبحي ، والمختار في ذكر الخطط والآثار للقضاعي ، وكتاب الخطط لابن بركات ، والنقط بمعجم ما أشكل من الخطط للجواني ، والروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، وسيرة الملك الظاهر أو السيرة الظاهرية لابن عبد الظاهر ، وإيقاظ المتغفل والحاظ المتأمل لابن المتوج ، وكتاب الابن دقماق ، وكتاب المغرب في أخبار [أهل] المغرب لابن سعيد الأندلسي ، وكتاب أخبار مصر [الكبير] لعبد اللطيف البغدادي [3] .

---

(١) خطط الشام ج ٦ ص ١٩٨ . وفي (خزائن الكتب العربية في الخافقين) للأستاذ الفيكنت فيليب طرازي أربعون فصلاً في التحدث عن الرزايا التي حلت بالكتب .

(٢) صحيفة الفتح المجلد ١٩ ، ع ٨٦٤ ص ٣٥

(٣) مصر الاسلامية للأستاذ محمد عبد الله عنان ص ١٦٧ و ١٦٨ وقال : وذكر هذه

ولمثل ما تقدم من مصائب الكتب قال الأستاذ الجليل محمد كردعلي : (وكنت أقدر أن النسبة بين الموجود والمفقود نسبة واحد إلى عشرة فلما زاد اطلاعي ايقنت أن الموجود واحد من أربعين أو خمسين وربما أقل ، لأن من المؤلفين من كتبوا كالجاحظ ثلثمائة وخمسين مصنفاً بين كتاب ورسالة ، فما بقي منها خمسة وعشرون كتاباً ورسالة والباقي فقد ، ومن المؤلفين من كتبوا مئة كتاب ورسالة ، فلم يبق منها سوى كتاب واحد ، ومنهم من كتبوا عشرات من الكتب ، ولم يبق منها كتاب ولا رسالة)[1].

— ٣ —

وليس كالفهارس يدلنا بعد هذا على عظمة مجدنا الرفيع الذي شاده الأجداد الأمجاد ، وقد أغنانا عن إحصائها والكلام عليها السيد يوسف أسعد داغر أحد أمناء دار الكتب اللبنانية ، وذلك فيما كتبه عنها[2] ، فننقله بنصه مختصرين اختصار حذف بعض ما نجده من شرح مطوّل ، مشيرين إلى ذلك بنقاط ثلاث غالباً ، كما حذفنا ما يتعلق بالصحف أو العصر الحاضر فلن لها مواطنها ، وقد أثبتنا مصادر بحثه كما أوردها :

— الآثار لا يدل حتماً على أن صاحب كشف الظنون قد عاينها ورآها ، فيدل بذلك على أنها كانت موجودة متداولة حتى أواخر القرن الحادي عشر الهجري . على أن ذكرها من جهة أخرى يدل على أنها كانت إلى ذلك العصر حية في الاذهان ماثلة في البحث والمراجعة ، مما يرجح وجودها أو العلم به . وقد رأينا أن كثيراً منها يرد ذكره في كتب بعض المؤرخين المتأخرين مثل السخاوي والسيوطي ، في معرض الاسناد والمراجعة ، مما يدل على أنها كانت أيضاً موجودة في القرن الحادي عشر ، واعتقادنا أن الأمل لم يقطع نهائياً من وجودها ، فقد يظفر البحث الحديث من آن لآخر بشيء منها مقبورة في ظلمات بعض المكاتب والمجموعات الخاصة ، بعد أن يئس من الظفر بها في المكاتب العامة (ص ١٦٩) .

(١) مجلة المجمع العلمي العربي المجلد ٢٠ ، ج ٣ و ٤ ص ٩٧

(٢) دليل الأعارب إلى علم الكتب وفن المكاتب طبع في بيروت عام ١٣٦٦ هـ ١٣٤٧ م ص ٥٢ — ٩٣

١ — فهارس الكتب العربية في الشرق [1]

كتاب الفهرست أو فهرس العلوم — لمؤلفه أبي الفرج بن إسحاق بن يعقوب النديم البغدادي الوراق [2].

وكتابه هذا من أقدم كتب التراجم ومن أفضلها ، لخص فيه التراث الاسلامي في صورة بهرت أهل الغرب ، وهو فهرست بكتب العلوم القديمة ولصانيف اليونان والفرس والهند الموجود منها باللغة العربية .

جمع فيه مؤلفه أسماء الكتب التي عرفها حتى أواخر القرن الرابع ، ونسقها حسب مواضيعها ثم أثبتها تحت أسماء مؤلفيها ، فعرف المؤلف تعريفاً موجزاً ، ووصف الكتاب حيث تيسر ذلك وصفاً قصيراً .

ألف كتابه هذا عام ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) كما جاء في صفحة ٣٨ و ٨٧ من طبعة الفهرس الاوروبية ، أي أنه كتبه وهو في الخمسين من عمره ، قبل وفاته باحدى وعشرين سنة . وقد عرفه أهل الغرب منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، وحيث نزحت مخطوطات له من مصر إلى باريس ثم من القسطنطينية الى ليدن . وقد ظل المستشرق الالماني (فلوغل Flugel) بعد أن جمع مخطوطات له من فينّة وباريس وليدن ، يعمل على نشره مدة خمسة وعشرين عاماً ولكنه مات عام ١٨٧٠ قبل أن يتم طبعه ، فقام بهذا العمل (هرمان رودیغر Roediger) و (ملر A. Muller) ونشر الفهرست سنة ١٨٧١ بالعربية في مدينة ليبزغ (المانيا) في ٣٦٠ صفحة بقطع نصف كبير ، والحق به عام ١٨٧٢ ذيل يقع في ٢٧٩ صفحة تضمن

---

(١) عيسى اسكندر المعلوف : « قوائم الكتب العربية » - المقتبس مجلد ٩ : ٨

(٢) مصادر ابن النديم : معجم الأدباء ٦ : ٤٠٨ - طبقات السبكي ٥ : ١٣٩ - طبقات الأسدي ورقة ٦٢ — حسن المحاضرة ١ : ٢٦ — شذرات الذهب ٣ : ٥٢٤ — روضات الجنات : ٤٩٤ — مفتاح السعادة ١ : ١٦٩ — محمد بن يونس الحسيني في مجلة المجمع العلمي العربي مجلد ١١ : ٦٧٨ - ٦٨٧ (في ابن النديم وطبعة فلوغل) — يوسف اليان سركيس معجم المطبوعات العربية . عمود ٢٦٧ — محمد أحمد حسين الفهرست لابن النديم (مجلة الثقافة عدد ١٥٦ (٢٣ — ١٢ — ١٩٤١) : ٢١ — ومقدمة الطبعة المصرية التي ظهرت عام ١٣٤٨ — وعبد الله مخلص (بعض صفحات من كتاب الفهرست) لغة العرب ٦ : ٥٠٢

التفاسير والتعاليق والاستدراكات بالعربية والالمانية ، مختوماً بفهارس الأعلام . وهـــذه الفهرست هي من أهم القوائم العربية وأقدمها التي تعرف الكتب والعلوم وتشير إلى موضوعاتها وعليها يعتمد دارسو اللغة العربية والمولعون بمعرفة المؤلفات والمؤلفين .

والذي يظهر من مطالعة الفهرست لابن النديم أنه اعتمد على من تقدمه من العلماء الذين وضعوا قوائم المؤلفـات والمترجمات والخزائن ، ولا سيما في زمن المأمون ، وهو العصر الذهبي للغة ...

وبعد طبع الفهرست في أوربة على يد (فلوغل) وزميليه (رروديغرو،لر) عثر الباحثون على قطعة منه ساقطة من أول المقالة الخامسة (ص ١٧٢) تشتمل على تراجم بعض علماء الكلام مثل واصل بن عطاء ، والعلاف ، والنظام ، وثمامة ، والجاحظ ، وابن أبي داود ، وابن الراوندي ، والناشئ ، والجبائي ، والرماني ، وهشام بن الحكم ، وشيطان الطاق ، وغيرهم فنشرت هذه القطعة في مجلة ألمانية سنة ١٨٨٩ م ، فـــتمّ الكتاب بأبحاثه الرائعة ومواضيعه المستفيضة (١) ...

ومع أن عمل فلوغل (Flugel) يعد فتحاً عظيماً ، فان المستشرق الالماني ريتر (Ritter) تمكن من العثور في مكتبة كوبريلي بالاستانة على المخطوطات الاصلية التي اعتمد عليها فلوغل وبرهن على أن المخطوطات التي اعتمد عليها المستشرق الالمـاني المذكور كانت أساساً ضعيفاً للنشر ، إذ أنها مخطوطات في الدرجة الثالثة أو الرابعة ، يجب الرجوع إلى الأصول التي عثر عليها — أي ريتر (٢) .

وقد عمدت الدائرة العربية في الجامعة الأميريكية في بيروت ، إلى إعداد طبعة جديدة من الفهرست لابن النديم ، وعهدت بذلك إلى المرحوم المعلم جرجس الخوري المقدسي أحد أساتذتها سابقاً ، فقام بالعمل خير قيـام ، ونشر تحت عنوان : (المنظوم الهجائي لأعلام الفهرست) عدة مقالات ظهرت في بحثه (المورد الصافي) (٣) .

---

(١) عبد الله مخلص — بعض صفحات من كتاب الفهرست — لغة العرب ٦ : ٥٠٢

(٢) محمد أحمد حسين — الفهرست لابن النديم أو فهرس العلوم — الثقافة (مصر) عدد ١٥٦ (١٩٤١/١٢/٢٣) : ٢١ - راجع في كتاب طوبقبو و كوبريلي ، المشرق ج ١١ : ٣٨ و ج ١٥ : ٨٧٩

(٣) مجلد ١٩ : ١٨٧ و ٣٠٥ ، ٤١٧

ومن فهارس الكتب القديمة الفهرس الذي وضعه أبو جعفر الطوسي (٣٨٥ — ٤٦٠) أثناء القرن الحادي عشر للميلاد بعنوان فهرس كتب الشيعة أو فهرس الطوسي في أسماء الرجال وقد طبع في كلكتا ١٨٥٣ = ١٣٧١ ، ويقع في ٢٨٣ ص ، ويليه كتاب (الايضاع لعلم الهدى) تولى نشره وتصحيحه ا. سبرنجر والمولى عبد الحق . أما المؤلف فهو فقيه الشيعة اشتغل بالافادة في بغداد إلى أن وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة سنة ٤٤٨ فاحترقت مكتبته وداره في باب الكرخ فانتقل إلى النجف . ومن مؤلفاته أيضاً كتاب (جامع البيان لعلوم القرآن) راجع في المؤلف (روضات الجنات) : ٥٨٠

كتاب « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » لأبي البركات عبدالرحمن الأنباري (٥١٣ — ٥٧٧ هـ) ١١١٩ — ١١٨١ م [١] من علماء اللغة والادب وتاريخ الرجال ، سكن بغداد وتوفي فيها تاركاً ما ينيف على مائة وثلاثين مصنفاً ، وقد طبع كتابه في مطبعة مصر ، عام ١٢٩٤ هـ ، في ٤١٩ صفحة .

ومنها كتاب « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » ويسمى أيضاً : (معجم الأدباء) لياقوت الحموي (٥٧٥ — ٦٢٦) [٢] ، المؤرخ الثقة وأحد أئمة الجغرافيين العرب ومن كبار علماء اللغة والادب . والكتاب مطبوع بتصحيح المستشرق الانكليزي مرغليوث (Margoliouth) على نفقة لجنة تذكار جب (Gibb) بمطبعة هندية بالقاهرة بين ١٩٠٨ — ١٩١٦ في ٧ أجزاء ، وقد أعيد طبعه سنة ١٩٣٩ في دار المأمون في ٢٠ جزءاً [٣] .

---

(١) راجع في الأنباري : ابن خلكان ١ : ٣٥٠ - ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ١ : ٢٦٢ — وطبقات السبكي ٤ : ٢٤٨ - بغية الوعاة ٢٠١ - طبقات الأسدي ورقة ٣٨ - وروضات الجنات ٤٢٥

(٢) راجع في ياقوت الحموي ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢ : ٢٧٧ والمقتبس ٨ : ٢٦٠ والرسالة مجلد ٥ : ١٢٤٦ ومجلد ١١ : ٣٩ و ٥٨ .

(٣) راجع في طبعة مرغليوث نقداً لمحمد كرد علي في مجلة المجمع العلمي مجلد ٨ : ٢٣٣ و ٥٦٧ ومجلد ٨ : ٢٢٦ و ٣٦٤ و ٤٣٣ — ونقداً آخر للشيخ محمد راغب الطباخ في ذات المجلة جلد ٩ : ٥٠٤ ، مع تعليق ورد لمرغليوث عليه ص : ٦٩٧ ، وآخر في المقتطف ٣٣ — ٢٤٠

وكتاب « التقييد في رواة الكتب والأسانيد » لابن نقطة أبي بكر محمد بن عبد الغني البغدادي (٥٧٠ - ٦٢٩ هـ) [١].

وكتاب « روضة الأدب في شعراء العرب » لأبي الطيب الأنصاري المخزومي [٢] المطبوع في لاهور (الهند) دون تاريخ ، في ١٩٦ صفحة . وبهذا الاسم كتاب آخر لاسكندر ابكاريوس ، مطبوع ببيروت عام ١٨٥٨ ويقع في ٢٨٨ صفحة .

وكتاب « أعلام العلماء بأخبار الحكماء » لجمال الدين القفطي (٥٣٦ - ٦٤٦ هـ) [٣] وزير الملك الظاهر ، وقد طبع الكتاب المذكور باعتناء المستشرق الالماني (ليبرت Lippert) في ليبزغ عام ١٩٠٤ م في ٤٦٦ صفحة [٤] . ثم عني بطبعه وتصحيحه السيد أمين الخانجي بمطبعة السعادة في مصر عام ١٣٢٦ ، بعد مقابلته على النسخة المطبوعة في المانية ومعارضته بالنسخ الثلاث الخطية المحفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة .

كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء [٥] » لابن أبي أصيبعة [٦] (٦٠٠ — ٦٦٨ هـ) ، ذكر فيه مراتب المتميزين من الاطباء المتقدمين والمحدثين ، مع نبذ كثيرة من أقوالهم وحكاياتهم ونوادرهم ، عدا اختلاف اجناسهم من هنود وفرس ، وعرب وسريان ويونان ، مرتباً سيرهم جغرافياً ، أي أنه ذكر أصحاب التراجم حسب الاقاليم التي ولدوا فيها ، طبعه الاستاذ ملر Muller ، ١٨٨٤ ، في جزأين كما طبع في مصر في المطبعة الوهبية عام ١٢٩٩ .

---

(١) تذكرة الحفاظ ، جزء ٤ : ١٩٨ .

(٢) معجم المطبوعات العربية ، حقل ٤٩ .

(٣) راجع فيه نفح الطيب : ٥٣٥ ، ونيل الابتهاج : ٢٠٩ .

(٤) راجع مقارنته بابن أبي أصيبعة والبيهقي في مقال للشيخ عبدالقادر المغربي ، في مجلة المجمع جلد ٢ : ١٩٣ .

(٥) راجع في الكتاب وأهميته وفي مؤلفه بحثاً تحليلياً للاستاذ محمد كرد علي في المقتبس ٣ (١٩٠٨) : ٧٢٠ — ٧٣٢ .

(٦) راجع فيه مقدمة الكتاب ، طبعة مصر ، وروضات الجنات ١ : ٨٥

أما المؤلف فهو طبيب مؤرخ ولد بدمشق وتلقى العلم عن أبيه وانتظم في خدمة الدولة الايوبية.
واستكمالاً لتاريخ الطب العربي في أشهر أعلامه قديماً ، ونتبعاً لمؤلفاتهم نشير بمراجعة المؤلفات التالية :

الدكتور أحمد عيسى — تاريخ البيمارستانات في الاسلام — دمشق ، المطبعة الهاشمية ، ١٩٣٩ ص ٣٠٠ (١) .

الدكتور أحمد عيسى — معجم الاطباء من سنة ٦٠٥ إلى يومنا هذا — القاهرة ١٩٤٢ ، مطبعة نوري ص ٥٢٨ (جعله ذيلاً لطبقات الأطباء لابن ابي أصيبعة)

ظهير الدين البيهقي — تاريخ حكماء الاسلام — نشره محمد كرد علي — دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٩٤٦ ص ٢٠٤ وضمنه ١١١ ترجمة طبيب مختلف .

راجع كذلك في كتاب الدكتور أمين أسعد خير الله : « الطب العربي » — بيروت ، ١٩٤٦ ، ص ٢٧٤ مصادر البحث ، ص ٢٦٢ — ٢٦٤ ، ففيها التنويه بمن كتب في الموضوع من عرب وفرنجة .

وكتاب « وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان » لابن خلّكان (٦٠٨ - ٦٨١هـ) والكتاب المذكور معجم يشتمل على ٨٦٤ ترجمة ، تعرف به أنساب الأعيان وضبط أسمائهم وسنو وفياتهم ومواليدهم (٢) ، طبع ببولاق ، في جزأين سنة ١٣٩٩ . أما المؤلف فهو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس احمد بن محمد الاربلي الشافعي الاشعري ، ولي القضاء تباعاً في مصر والشام (٣) . ولوفيات الاعيان ذيول كثيرة وطبعات متعددة في الشرق والغرب ،

---

(١) قلت : إنه من منشورات جمعية التمدن الاسلامي بدمشق .

(٢) راجع بشانه « موازنة بين الاغاني ووفيات الاعيان » لسعيد الخوري الشرتوني ، في المقتطف ٢٩ : ٣٢١ ،

(٣) — مصادرة : في آخر الجزء الثاني من الكتاب ، والترجمة المذكورة لنصر الهوريني — فوات الوفيات ١ : ٥٥ — وطبقات السبكي ٥ : ١٤ — وطبقات الاسدي : ورقة ٦٠ — وحسن المحاضرة ١ : ٢٨٦ — والخطط الجديدة ١٠ : ١٧ — والفوائد البهية ١١ — بالتعليقات — وروضات الجنات ١ : ٨٧ — ومفتاح السعادة ١ : ٢٠٩ — ومعجم المطبوعات العربية حقل ٩٨ و ٩٩ .

أتى على بيانها صاحب « معجم المطبوعات العربية » في الحقل ٩٩ من معجمه المذكور .

ومنها « طبقات الامم » لابي قاسم صاعد بن احمد بن عبد الرحمن بن صاعد التغلبي القرطبي ، قاضي طليطلة بالاندلس ، المتوفى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) ، بدأ فيه بتعريف العلوم عند الامم : كالهند والفرس والكلدان واليونان ، والروم والمصريين ، والعرب وبني اسرائيل . وذكر المؤلفين فيها وكتبهم وأطال البحث عن آثار العرب في العراق والشام ومصر والاندلس .. وقد نشر هذا الكتاب تباعاً في مجلة المشرق ، مجلد ١٤ ثم طبع عام ١٩١٢ على حدة في مئة وخمس وأربعين صفحة .

ومنها « فهرست الكتب والتآليف » لابي بكر محمد بن خليفة الاشبيلي الاندلسي ، من علماء القرن السادس للهجرة وصف فيه الفاً وأربعمئة كتاب في كل علم مع أسانيدها كما رواه عن شيوخه في العلوم والمعارف ، وقد طبع هذا الكتاب أصلاً ملحقاً لـ « كشف الظنون » في ليبزيغ من سنة ١٨٣٥ الى ١٨٥٥ ، ثم نشر في مجلة اسبانية بعناية المستشرق الاسباني « كوديرا » (Codera) عام ١٨٩٤ .

ومن فهارس الكتب والكتاب : « الوافي بالوفيات » ، تأليف امام اللغة والشعر والتاريخ ، صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي الشافعي ، يقع في بضع مجلدات كبرى تحتوي زهاء أربعة عشر الف ترجمة ، ولعله أكبر المعاجم في تراجم الاعيان والكتاب والادباء ، جمع ما يحويه « وفيات الاعيان » لابن خلكان و « طبقات الادباء » لياقوت [1] . واجزاء هذه الكتاب مبعثرة في خزائن الكتب في الغرب (اكسفورد وباريس وفينة) وفي الخزانة التيمورية والخزانة الزكية ودار الكتب المصرية ، فيكون مجموعها نسخة تامة . وهذا ماحمل البرنس « كايتاني » ، احد علماء الاستشراق الاعلام في ايطاليا على نقل جميع اجزاء هذا الكتاب بالتصوير الشمسي ، رغم كونها مشتتة ، وبهذه العناية اصبحت نسخته هذه اكمل نسخة ..

وقد باشرت بطبعه جمعية المستشرقين الالمان باعتناء المستشرق ريتر (H. Ritterer) ظهر المجلد الاول منه عام ١٩٣١ ، في الاستانة ، مطبعة الدولة ، في ٣٧٥ صفحة [2] ولهذا الكتاب القيم ذيل مسمى : « المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي » لابي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردي (٨٠٣ — ٨٧٤ هـ) جمع فيه التراجم من سنة ٦٥٠ الى عهد المؤلف

(١) راجع فيه مقالا مستفيضاً لمحمد كرد علي ، في المقتبس ، مجلد ٨ : ٢٧٢

(٢) لغة العرب مجلد ٩ : ٧٨٧ .

منه نسخة بدار الكتب المصرية رقمها ١١١٣ [١]. اما الصفدي (٦٩٦ – ٧٦٤ هـ) صاحب « الوافي بالوفيات » فهو اديب ومؤرخ كثير التصانيف الممتعة ، بعضها مطبوع وبعضها مخطوط ولد في صفد وتعلم في دمشق ، وولع بالادب وتراجم الاعيان ، وهو يكاد يكون اخصائياً في التراجم ، وتولى ديوان الانشاء في صفد ومصر وحلب ثم وكالة بيت المال في دمشق [٢] .

ومنها « ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد » تأليف شمس الدين محمد بن ابراهيم ساعد الانصاري ، المعروف بابن الاكفاني السنجاري الاصل المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) ، وهو يبحث في وصف العلوم واهم الكتب المؤلفة فيها ، طبع في الهند سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠٠م) وفي بيروت ايضاً بعناية المرحوم الشيخ طاهر الجزائري ، سنة ١٩٠٤ في ١٤٨ صفحة .

ومنها كتاب « تذكرة الحفاظ » لشمس الدين الذهبي الدمشقي [٣] المتوفي سنة ٧٤٨ هـ المؤرخ المحقق صاحب التصانيف العديدة ، طبع كتابه في الهند ، في مطبعة حيدراباد في اربعة اجزاء .

ومنها كتاب « فوات الوفيات » لابن شاكر الكتبي ، الحلبي الاصل الذي نشأ وتوفي بدمشق ، (٨١٣ – ٨٧٢) وكتابه هذا ذيل على وفيات الاعيان لابن خلكان ، المار ذكره (ص ٤٠١) ويشتمل على ٥٧٢ ترجمة . طبع في بولاق عام ١٢٩٩ هـ في جزأين يقعان في ٣٨٠ و ٤١٢ صفحة .

ومنها « فهرس جلال الدين السيوطي » المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) وهو مأخوذ من كتابه المرسوم : « إتمام الدراية لقراء النقاية » شرح لاحد مؤلفاته المدعو « النقاية » ضمنه خلاصة اربعة عشر علماً . وللسيوطي ايضاً ، فوق ماله من عشرات المؤلفات . كتاب

---

(١) راجع فيه مقالا لتوفيق اسكاروس في الهلال ، مجلد ٣٠ (١٩٢٢) ص : ١٠٤٦ .

(٢) مصادره : طبقات السبكي ٦ : ٩٤ وطبقات الشافعية للأسدي ، ورقة ٨ – ومفتاح السعادة ١ : ٢١ – وعلي الطنطاوي : « اثر ادبي فذ : اختراع الخراع ، في مجلة الرسالة (القاهرة) عدد ١٢٠ و ١٢١ (سنة ١٩٣٥) : ١٦٩٨ و ١٧٤٠ .

(٣) مصادره : فوات الوفيات ٢ : ٩٦ – شذرات الذهب ٣ : ٣٩٥ – المنهل الصافي ١٠٧ – طبقات السبكي ٣ : ٢١٦ – طبقات الحفاظ ٣ : ٨٩ – الفوائد البهية ١٢ بالتعليقات.

« بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » بدأه بترجمة المحمدين ، ثم ساق اسماء الرجال على حروف المعجم . والكتاب المذكور طبع مراراً .

ومنها « القصيدة البائية في اسامي الكتب العامية » لشرف الدين بن عمر المقدسي المتوفى سنة ٧١٢ هـ (١٢١٢ م) ، ذكره ابن حجر العسقلاني في كتابه « الدرر الكامنة » بقوله : (وما رأيت من الف فيه شيئاً غيره وقد حال النظم وضيقه عن استيعابه كما ينبغي) فيكون اول قوائم الكتب الشعرية .

ومنها كتاب « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » لعصام الدين ابي الخير احمد ابن المولى مصلح الدين مصطفى بن خليل الملقب بطاش كبري زاده ، المتوفى سنة ٩٦٨ هـ (١٥٦٠ م) وقد طبع في الهند في مطبعة المعارف النظامية في حيدر آباد دكن في مجلدين طبع اولهما سنة ١٣٢٨ في ٤٥٥ صفحة ، وثانيهما سنة ١٣٢٩ في ٤٨٦ ...

ومنها كتاب « كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون » وهو معجم للمؤلفات العربية ، فيه ذكر نحو ١٤٥٠٠ كتاب مرتبة على الحروف الابجدية، جامع لاخبار الكتب المصنفة في الاسلام وقبله واحوال مصنفيها ووفياتهم لم يصنف في بابه مثله .

اما المؤلف فهو مصطفى بن عبد الله المشهور « بحاجي خليفة » والملقب « بكاتب جلبي » (١٠٠٤ - ١٠٦٧ هـ) [1] .

ولقب بخليفة لانه كان معاوناً في مصلحة المؤونة في الاستانة وصاحبها يسمى خليفة .

لقد اشتغل بالعلم والادب وطاف البلدان وشاهد مشاهير المؤلفات وعرف كثيراً من العلماء ودرس عليهم وتفقد خزائن الكتب في الاستانة والاناضول والعراق وبلاد العجم وحلب والشام وغيرها من الاقطار الشرقية ، وعرف خزائن المغرب ومصر وشبه الجزيرة العربية .

وبعد أن ملأ دفاتره من اسماء الكتاب وتراجم مؤلفيها رتب كتابه « الكشف » على حروف المعجم فاورد فيه ١٤،٥٠٠ كتاب ، ذاكراً اسم مؤلفه وسنة وفاته ، وموضوع الكتاب او شيئاً من مقدمته ، وعدد مجلداته او اوراقه او كراريسه ، مسترسلاً الى

(١) راجع فيه الفوائد البهية ١٩ بالتعليقات — يوسف اليان سركيس : معجم المطبوعات العربية، حقل ٧٣٢ خير الدين الزركلي، الاعلام ١٠٤٢ ، وحمزة ظاهر في الثقافة مجلد ٢ : ٢٣٨

ماوضع عليه من الشروح والتعاليق والاختصارات والترجمات وما شاكل ، من مؤلفات العرب والعجم ،ولا سيما الفرس والاتراك .فهواطول مؤلف لخزائن الكتب وادق وصف لها .

وقد صدره بمقدماته في تاريخ العلوم والفنون وما يتعلق بها ، منتقداً مايراه منها ، مفيضاً الكلام في العلوم الاسلامية وأنواعها والخطوط وتاريخها . ثم ذكر مفصلا العلوم في حروفها واعقبها بذكر المؤلفات فيها وهو مدقق في كثير من ابحاثه .

لقد اعتنى بطبعه المستشرقون فوفقوا الى بعض نسخه فى مكتبات اوربة ، وكان من المشتغلين بذلك المستشرق « فلوغل » ، طابع « فهرست ابن النديم » فنشر الكشف مطبوعاً في ليبزيغ من سنة ١٨٣٥ – ١٨٥٨ ، في سبع مجلدات ضخمة مع ترجمة لاتينيه وفهارس واسعة وملحقات مفيدة اهمها :

١ – ذيل احمد حافظ زاده المتوفى سنة ١١٨٠ هـ (١٧٦٦ م) وهو يشتمل على اهم الكتب التركية والفارسية التي عرفت بعد كشف الظنون .

٢ – برنامج الكتب المتداولة في بلاد المغرب .

٣ – فهرست السيوطي ، وهو جلال الدين ابو الفضل عبد الرحمن بن كمال الدين ، المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) .

٤ – ستة وعشرون فهرستاً للمكتبات الموجودة في مصر ودمشق وحلب وجزيرة رودس والاستانة وكتبها نحو ثلاثين الفاً .

٥ – « فهرست الكتب والتأليف » لابي بكر محمد بن خير بن خليفة الاندلسي من علماء القرن السادس للهجرة ، وصف فيه ١٤٠٠ كتاب في كل علم مع اسانيدها ، وقد نشرته وحده مجلة اسبانية بعناية فرنسيس كوديرا سنة ١٨٩٤ في مدينة كازيرو كوسته ، (راجع الاعلام ص٧٥) ووضع بجانب اسماء الكتب ارقاماً متسلسلة من ١ – ١٤٥٠٠ ، ووضع له فهرساً فرنجياً على حروف المعجم لاسماء المؤلفين ، ووجد منه نسخة منسوخة عن خط المؤلف – ويظهر أن بعضهم زاد عليه شيئاً – فوضع فلوغل الزيادات بين هلالين .

وبعد أن ظهرت هذه الطبعة المتقنة ، علق عليها المستشرق « رينو » ملاحظات مفيدة طبعت في باريس سنة ١٨٠٩ م ، وطبع ثانية في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٩٣م) في مجلدين كبيرين بقطع نصف كبير . وفي هذه الطبعة كثير من التحريف والتصحيف والنقص واختلاف الروايات .

وطبع ثالثة في الاستانة ، ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) بعناية الكبي حسن حلمي افندي في مجلدين بقطع نصف كبير ، الاول رتبت فيه الكتب من حرف الالف الى آخر الراء في ٥٩١ ص ، والثاني من الزاي الى الياء ، في ٦٦٢ ص ، وهو اكثر النسختين خطأ ونقصاً وتحريفاً وتصحيفاً (وتشويشاً) .

وادق طبعة من الطبعات الثلاث ليبزيغ . . .

و « للكشف » نسخ مخطوطة يصح الاعتماد عليها ومراجعتها لتصبح الغلط وسد النقص ومنها ماهو في المكتبة الظاهرية بدمشق وفي دار الكتب المصرية وغيرها بمصر وفي خزائن الاستانة وادرنة .

وبعد موت المؤلف بمائة سنة تقريباً اعتنى ابراهيم افندي ، المشهور ب «عربه جي باشا» والمتوفى سنة ١١٩٠ هـ . بتهذيب هذا الكتاب . فصحح بعض زلات الاصل وأزال منه ، على قدر وسعه ، كثيراً مما كان في بيان تاريخ الوفيات من النقصان وربما الحق به الحاقات مفيدة .

وقد صدر منه في الاستانه ، مؤخراً ، طبعة جديدة بتحقيق الاستاذين محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيكله الكليسي ، ظهر الجزءان الاول والثاني من هذه الطبعة الجديدة سنة ١٩٤١ و ١٩٤٣ ، طبعتة وكالة المعارف التركية في ١٠٠٨ صفحات للجزء الاول ، وتمتاز هذه الطبعة عما تقدمها بمحاسن عدة ، منها ان اسماء الكتب طبعت بحرف اكبر حجماً مخالف المتن ، ومنها ان كل كتاب فيه جعل في رأس سطر .

ولقد وضع البحاثة المرحوم جميل بك العظم ذيلاً « لكشف الظنون » ، سماه : « الاسفار عند العلوم والاسفار » ضمنه المؤلفات التي لم يذكرها الكشف ، وما كان بعده منها ، وصدره بمقدمة بديعة في الكتب والمكتبات والمؤلفين . فهو جدير بالنشر لما فيه من الفوائد الكثيرة . (١) .

---

(١) نحن مدينون ببعض المعلومات في هذه الدراسة عن « الكشف » لصديقنا الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، من مقال له لايزال مخطوطاً .

ومن فهارس الكتب ومعاجم السير والرجال الكتاب الذي وضعه مؤرخ الاندلس ابو العباس احمد بن محمود المقري (١٦٢١/١٠٤١هـ) الملقب بـ « حافظ المغرب وجاحظ البيان » التلمساني المولد المالكي الاشعري المذهب . و كتابه هذا هو المعروف بـ « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » من تاريخ الاندلس السياسي والادبي . والكتاب المذكور يقع في ٤ مجلدات ، طبع في بولاق عام ١٢٧١ وفي المطبعة الازهرية ، سنه ١٣٠٤ ، وبهامش الاجزاء الثلاثة الاولى « مروج الذهب » للمسعودي ، وبهامش الجزء الرابع « تحفة الاحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم » للسخاوي . وقد اعادت طبعه قبل نشوب الحرب الاخيرة دار المأمون في مصر ، في ٨ مجلدات (١) .

ووضع الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي ، احد علماء الشيعة في جبل عامل (١٠٣٣هـ) كتاباً سماه : « امل الآمل في علماء جبل عامل » (٢) فيه اسماء المتأخرين منهم وقد طبع في العجم .

ونضيف الى ماسبق ذكره ، تاريخاً مخطوطاً عنوانه « ديوان الاسلام » تأليف الامام محمد ابي المعالي بن عبدالرحمن العامري ، الشهير بابن الغزي (١٠٩٦ - ١١٦٧ هـ) . وليس لهذا المخطوط البديع نسخة ثانية ، ولعلها النسخة الوحيدة منه ، بل يرجح انها بخط المؤلف نفسه ، ويشتمل هذا المخطوط على نيف والفي عَلَم من اعلام الرجال ، منذ اوائل الاسلام الى ايام المؤلف . وهو بمثابة فهارس لهم مرتبة على حروف المعجم ، حوت من تراجمهم ما لا بد منه : اي اسم المترجم له واسم ابيه وجده ، والفن الذي اشتهر به او التصنيف الذي شاع

---

(١) مصادره — خلاصة الاثر ١ : ٣٠٢ — وتعريف الخلف ١ : ٤٤ — واليواقيت الثمينة : ٣٩ كذلك راجع فيه مقالا لعبد الهادي الشرابي اقصره على الناحية الادبية ظهر في مجلة الرسالة (مصر) ، مجلد ٣ (١٩٣٥ — عدد ١٠١) : ٩٣٩ و ١٠٢٦

ومقالا آخر لمحمد عبد الله عنان « المقري مؤرخ الاندلس » في الرسالة مجلد ٤ (١٩٣٦) عدد ١٦٠ و ١٦١ ص ١٢١٠ و ١٢٤٦ .

(٢) ولد في قرية مشغرة وقرأ على ابيه وعمه وغيرهم من المشايخ ، واقام في البلاد اربعين سنة ، ثم رحل الى العراق وزار الرضا بطوس — راجع فيه : روضات الجنات : ٥٤٤ وسلافة العصر

اسمه به ، ثم ذكر نسبة وبلده وسنة ولادته ووفاته [1] ،

ويتصل بالفهارس ، سائر الكتب التي اطلقوا عليها عنوان : « كتب الطبقات » وضمنوها تراجم العلماء والادباء ، والفقهاء وغيرهم ، فقالوا : طبقات الشعراء وطبقات الادباء وطبقات النحاة ، وطبقات الفقهاء وطبقات الصحابة ، وطبقات المحدثين ، وطبقات المفسرين وطبقات الحفاظ وطبقات اللغويين ، وطبقات الاطباء وطبقات النسابين وطبقات الندماء وهلم جرا ، وكلها كتب هامة في السير والتراجم ، ومراجع اساسية للتحقيق التاريخي يجب على امناء المكاتب العربية بنوع خاص ان يتمرسوا بها ويقفوا على مظانها ، قياماً برسالتهم العلمية .

ونهج بعض المتأخرين مناهج الاقدمين ، فدوّنوا الفهارس المختلفة التي تكشف عن اجتهادهم في هذا المضمار . واول فهرس نشره بالطبع ناطق بالضاد ، في بلاد الشرق ، كان فهرس المكتبة الوفائية التابعة للسجادة الوفائية في القاهرة . وقد طبع سنة ١٢٦٨ للهجرة (١٨٥١ م) .

وفي عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) نشرت مطبعة بولاق الاميرية لكتب خزانة الهامي باشا في القاهرة . ثم طبعت الحكومة العثمانية ، بين السنة ١٢٧٩ والسنة ١٣١٣ للهجرة « فهارس الكتب العربية المخزونة في مكاتب القسطنطينية » وعددها اثنان واربعون فهرسا [2] .

واصدرت مطبعة وادى النيل بالقاهرة « الفهرست القديمة للكتبخانة الخديوية » عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) ، ولها ذيل طبع بمطبعة المدارس عام ١٢٩٢ يقع ، في ٨٠ + ٣٢ صفحة . وبعد سنتين من هذا التاريخ نشرت مملكة تونس فهرساً لخزانتها الرسمية المعروفه بالكتبخانة الصادقية ، وسميت كذلك تيمناً باسم باي تونس محمد الصادق باشا ، مؤسس هذه المكتبة ، واصدرت حكومة تونس في عهدنا هذا ، فهرسا جديدا للمكتبة الصادقية يقع في ستة اجزاء . وفي سنة ١٢٩٩ هـ ، طبعت حكومة دمشق ، في عهد واليها احمد حمدي باشا « فهرست المكتبة العمومية » المعروفة الآن بدار الكتب الظاهرية .

---

(١) مجلة الرسالة (القاهرة) عدد ١١٨ ، سنة ٢ : ١٦٣٠ .

(٢) راجع معجم المطبوعات العربية والمعربة : حقل ١٤٦٥ .

ومنذ السنة ١٣٠٦ حتى السنة ١٣١٠ للهجرة (١٨٨٨ - ١٨٩٢ م) ظهر في عالم الطباعة « فهرس الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية المصرية » بسبعة اجزاء ، في ثمانية مجلدات . وكان مركز الكتبخانة حين ذاك بسراي درب الجماميز ، وما لبثت ادارة المكتبة المذكورة بعد انتقالها الى مركزها الجديد الحالي في باب اللوق ، ان باشرت منذ عام ١٩٢٤ ، اصدار فهرس جديد لجميع مطبوعاتها ومخطوطاتها في مجلدات متسلسلة ، وقد دعته « فهرس الكتب العربية الموجودة لدار الكتب المصرية »[١] .

وسنة ١٣٠٤ للهجرة (١٨٨٧ م) ظهر في بلاد ايران كتاب « روضات الجنات في احوال العلماء والسادات »[٢] في اربعة اجزاء بمجلد واحد تأليف محمد باقر الموسوي الخونساري ، والكتاب المذكور في تراجم اعيان الشيعة وسائر فضلاء المسلمين وترجمة العلماء الراسخين من تقدم منهم وتأخر وذكر اسمه في الفهارس ولم يذكر . وقد أكمله وعقب عليه محمد مهدي الموسوي الاصفهاني في كتابه : « احسن الوديعة في تراجم مجتهدي الشيعة » طبع في بغداد في مطبعة النجاح عام ١٣٤٧ ويقع في ٢٤٤ ص اقتصر فيه على علماء الشيعة في ايران والعراق فقط . وقد اكثر فيه من الرسوم الا انه يؤخذ عليه تسجيعه الممل واغداق الالقاب الضخمة[٣] .

وفي السنة ١٣١٢ للهجرة (١٨٩٣ م) نشر عبد الله الانصاري ، استاذ اللغة العربية في دار العلوم الخديوية بالقاهرة ، كراسا عنوانه « جامع التصانيف المصرية الحديثة » التي ظهرت بين السنتين ١٣٠١ - ١٣١٠ هـ (١٨٨٣ - ١٨٩٢ م) ويقع هذا الكراس في (٨٦) صفحة .

وفي السنة ١٨٩٥ وضع ادوار فنديك ، نجل العلامة المستشرق الدكتور كرنيليوس

---

(١) راجع « فهارس الكتب العربية لدار الكتب المصرية » الجزء الثاني والثالث والرابع والخامس في مجلة لغة العرب مجلد ٧ ص ٧٣٧ ، ومجلد ٩ ص ٣٨٨

(٢) راجع في رضات الجنات ، العرفان مجلد ٩ ص ٣١٦

(٣) راجع فيه العرفان مجلد ٢٠ ص ١٠٤

فنديك كتاب : « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » في ٦٨٠ صفحة، ضمنه كل ماوصلت اليه معرفته من اسماء الكتب العربية القديمة والحديثة التي ابرزتها مطابع الشرق والغرب ، ساق الكتب فيه اولا مرتبة على مواضيع العلوم والفنون ثم ذكرها في مسردين تاليين مرتبة ابجدياً باسماء مؤلفيها وبعناوينها (١) .

وفي السنة ١٩٠٠ أصدرت المكتبة الآصفية في القاهرة ، لصاحبها محمد بن علي باشا آصف فهرساً مطبوعاً على مطبعة حجرية لجميع محتوياتها من المخطوطات والكتب المطبوعة . وفي السنة ذاتها برز فهرس آخر يتضمن أسماء الكتب المخطوطة والمطبوعة التي تحويها الخزائن الملكية في حيدر آباد في الهند .

وفي ١٣١٨ هـ نشرت ادارة المكتبة الخالدية في القدس فهرساً بما اشتملت عليه تلك الخزانة من الكتب المخطوطة والمضبوعة . وقد عهدت باعداد هذا العمل إلى السيد أبي الخير محمد الجبال فأتمه بوقت قريب ، وهو يحتوي نيفاً والف كتاب في كل اصناف العلوم (٢) ...

ولمكتبة جامع الزيتونة في تونس فهرس حوى عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها وأرقام صفوفها . وفي مطلع القرن العشرين عنى السيد روى (B. Roy) الكاتب العام لدار الحماية الفرنسية في تونس عناية خاصة بشؤون هذه المكتبة ، فأوعز الى الشيخ محمد الحشايشي أن ينظم لها وللمكتبة العبدلية (الصادقية) فهرساً علمياً على شاكلة فهارس المكتبات الكبرى ، غير أنه لم يطبع من الفهرس المذكور إلا أربعة كراريس فقط ...

وأصدر المرحوم جميل المظم كتابه المعروف : « عقود الجوهر في تراجم من لهم خمسون تصنيفاً فمائة فأكثر » في جزأين ظهر اولهما فقط سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) ويقع في ٣٤٣ صفحة ، ذكر فيه كبار المؤلفين في العرب والاسلام منوهاً بما لهم من الآثار الفكرية المطبوعة والمخطوطة .

وفي سنة ١٣٣٠ هـ وضع السيد إعجاز حسين الكنتوري فهرساً للكتب عنوانه « كشف

---

(١) راجع فية مجلة البيان (١٨٩٨) : ١٨٠ والمقتطف ٢١ (١٨٩٧) : ٤٢٥ — ٤٣١ والمقال استدراك على كتاب « اكتفاء القنوع » .

(٢) المشرق مجلد ٣ (١٩٠٠) : ٧٦٠ .

الحجب والأستار عن أسماء الكتب والأسفار » طبع بتصحيح هداية حسين بن شمس العلماء ولاية حسين في ٦٠٧ صفحات ذكر فيه الكتب التي وضعها الامامية .

وفي سنة ١٣٣٢ هـ وضع السيد جعفر الكتانة « الرسالة المستطرفة لبيان شهود كتب السنة المشرفة » وما يتبعها من كتب ورسائل ، وقد طبعت في بيروت على نفقة محمد ابن السيد أحمد خرما ، في ١٨٠ صفحة .

ومن فهارس الكتب العربية المخطوطة والمطبوعة « فهرس خزانة الكونت رشيد الدحداح » وهي خزانة جمعها في منزله في باريس من الكتب والمؤلفات العربية النفيسة المخطوطة والمطبوعة ، كما يظهر من مراجعة لائحتها المطبوعة التي وضعها السيد بيطار ، أحد أساتذة مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس ، وقد ضمت ٢٩٦ مخطوطاً و ٤٣٠ كتاباً مطبوعاً موزعة بين مختلف العلوم والفنون العربية (١) .

ومن فهارس الكتب والكتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لصاحبه المرحوم جرجي زيدان منشئ الهلال الأغر ، وأحد أركان النهضة التاريخية والأدبية الأخيرة في الشرق . والكتاب المذكور يقع في أربعة أجزاء ضخمة ، ظهرت تباعاً بين سنة ١٩١١ — ١٩١٤ ، وهو في تاريخ اللغة العربية وعلومها وما حوته من العلوم والآداب على اختلاف نواحيها وتراجم العلماء والأدباء والشعراء ومآثر أرباب القرائح ووصف مؤلفاتهم وأماكن وجودها أو طبعها ، من أقدم أمكنة التاريخ حتى الآن . وقد وضع للكتاب المذكور فهرس عام بمواضيع الكتاب في أجزائه الأربعة مرتبة أبجدياً ، وفهرس آخر بأسماء المؤلفين مرتبة على حروف المعجم مع الاشارة إلى ورودها في أجزاء الكتاب المختلفة (٢) ...

---

(١) راجع في الكونت رشيد الدحداح ، المشرق مجلد ٤ (١٩٠١) ٣٨٥ و ٤٥٦ و ٤٨٩ — ومجلد ٢١ (١٩٢٣) : ١٩

(٢) لم يذكر السيد أسعد داغر كتاب (تاريخ آداب العرب) لحجة الأدب المرحوم مصطفى صادق الرافعي وهو في موضوع (تاريخ آداب اللغة العربية) هذا وقد ألفا وظهرا في زمن واحد ، وهو يقع في أربعة أجزاء . وعلمت أن لمؤلف هندي كتاباً بين فيه ما أخذه على الأستاذ جرجي زيدان .

وعام ١٩١٣ نشرت نظارة الحقانية المصرية في القاهرة فهرساً هجائياً بالكتب العربية والفرنجية المحفوظة بمكتبة مدرسة الحقوق الخديوية ، جمعه أمين المكتبة المذكورة السيد محمد عفيف يوسف ...

ومن فهارس الكتب والأعلام العربية التي تستحق ذكراً خاصاً دوائر المعارف باللغة العربية ، منها « دائرة المعارف البستانية »[1] وهي أول دائرة علمية ظهرت باللغة العربية على أسلوب علمي حديث ، باشر بوضعها المرحوم المعلم بطرس البستاني وأبرز منها ستة أجزاء قبل وفاته ... وأتم ابنه سليم الجزء السابع ... والجزء الثامن ... وأتم الأجزاء التالية نجيب وأمين البستاني بمساعدة سليمان البستاني ...

« دائرة معارف القرن العشرين » تأليف محمد فريد وجدي ، وهو قاموس عام مطول باللغة العربية والعلوم النقلية والعقلية والكونية بجميع أصولها وفروعها ، ففيه النحو والصرف والبلاغة والمسائل الدينية وتاريخ الفرق والمذاهب والتفسير والحديث ، والأصول والتاريخ العام والخاص ، وتراجم مشهوري الشرق والغرب ، والجغرافيا الطبيعية والسياسية والكيمياء والفلك والفلسفة والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والروحية والطب والعلاج وقانون الصحة والفنون المنزلية ، وخواص العقاقير والأقرباذين ، والاحصاءات وسائر مايهم الانسان في جميع المطالب ، في ١٠ أجزاء ، مصر ، مطبعه دائرة معارف القرن العشرين عام ١٩٢٣ م = ١٣٤١ هـ .

« دائرة المعارف الاسلامية »[2] وهي معجم عام للأعلام العربية والاسلامية ، قام بنشره في ثلاث لغات : الفرنسية والالمانية والانجليزية ، لفيف من علماء المشرقيات والمستعربين

— كما فات السيد أسعد داغر ايضاً أن يذكر هنا أن الأستاذ الفيكونت فيليب طرّازي سفراً عظيماً وهو « خزائن الكتب العربية في الخافقين » يقع في أكثر من ١٣٠٠ صفحة (اقرأ في تقريظه مجلة المجمع العلمي العربي المجلد ١٦ ج ١ و ٢ ص ٧ — ١٦) .

(١) راجع فيها المنار ٢ : ٦١ ، والمقتطف ٤٥ (٩/١٩١٤) : ٣٠٣

(٢) محمد كردعلي : معلمة الاسلام أو دائرة المعارف الاسلامية ، مجلة الثقافة ، عدد ٨ ص ٦٣ ، والمقتبس ٩ : ٢٣ ، ومجلة المجمع ٦ : ٣٤١

في الغرب ، نشرته دار النشر بريل (Brill) في مدينة ليدن ، وهو يقع في أربعة مجلدات ضخمة وملحق .. والملحق في ٢٨٦ صفحة . وقد قام بترجمة هذه الدائرة إلى اللغة العربية لجنة ترجمة « دائرة المعارف الاسلامية »، من أعضائها البارزين محمد ثابت ، محمد الشنتناوي ، وإبراهيم زكي خورشيد ، وعبد الحميد يونس من متخرجي الجامعة المصرية ، ظهر الكراس الاول منها في أول تشرين الأول سنة ١٩٣٣ م ، وبلغ عدد المجلدات التي ظهرت للطبع حتى هذا التاريخ ثلاثة مجلدات ... (وأثبت السيد اسعد داغر ما قاله النقاد فيها)

ومن فهارس الكتب الكتاب الذي وضعه عبد العزيز الراجكوتي بعنوان : « إقليد الخزانة » وهو فهرس بأسماء المصنفات ، وعددها ٩٤٠ ، وهي الوارد ذكرها مبعثرة في « خزانة الآداب » وهو من أجمع كتب الأدب لمؤلفه عبد القادر البغدادي ، وعلق في ذيل الصفحات على أسماء بعض المؤلفات وأشار إلى مايوجد منها في خزائن الكتب العامة والخاصة . طبع الكتاب المذكور على نفقة جامعة بنجاب في لاهور الهند عام ١٩٣٧ في ١٣٠ صفحة (١)

ومن تلك الفهارس « فهرس المكتبة البلدية في الاسكندرية » رتبه الاستاذ السيد أحمد أبي علي ، أمين المكتبة المذكورة ، ضمنه ثمانية وأربعين علماً وما يقع تحتها من أسفار الكتب ، في ستة مجلدات ، بقطع الثمن ، صفحاتها جميعاً ٢٠٤٠ صفحة ، نشرته شركة المطبوعات المصرية في القاهرة بالاسكندرية بين سنة ١٩٢٧ — ١٩٢٩ م والكتب فيه مرتبة على حروف الهجاء تحت كل فن على حدة كترتيب فهرس دار الكتب المصرية . وقد وصف الكتب التي ورد ذكرها في هذا الفهرس وصفاً موجزاً ، مع لمعة من حياة مؤلفها ، فجاءت هذه الفهرست حسنة بما فيها من دقة الملاحظة وسهولة المراجعة على الباحث في كل ما يهمه أمره (٢) .

وليوسف اليان سركيس فهرس مطول سماه « معجم المطبوعات العربية والمعربة »

---

(١) راجع فيه مقالاً للمؤلف نفسه في مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ٨ : ٥٢٥ ، ونقداً بقلم الشيخ عبد القادر المغربي في المجلد ذاته صفحة ٥٧٤

(٢) الأب أنستاس الكرملي . « فهارس المكتبة البلدية في الاسكندرية » ، مجلة لغة العرب ، مجلد : ٨١٠ — ٨١٨

برز سنة ١٩٢٨ ، وهو معجم شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الاقطار الشرقية والغربية تحت أسماء مؤلفيها ولمحة من تراجمهم ، وذلك منذ ظهور الطباعة إلى نهاية سنة ١٩١٩ م ، مع الاشارة الوجيزة إلى موضوع كل منها ومحل الطبع وتاريخه ، يرافق ذلك كله تدقيقات هامة ومعلومات جزيلة الفائدة تتعلق بالمؤلفين ومصادر تاريخهم ، واستثنى المؤلف من تلك الكتب المؤلفات الدينية النصرانية والروايات والقصص وماشاكلها . فبلغ عدد صفحاته ١٠١٢ + ١٢٥ (لعناوين الكتب) + ١٨ صفحة موزعة إلى ٢٠٢٤ حقلاً أو عموداً في كل صفحة منها حقلان . وعلى الاجمال فالمعجم المذكور يعد من الكتب الثمينة التي لا ندحة عنها للادباء والمكاتب العربية .

وقد رأى المؤلف الكريم أن يعقب على معجمه المذكور بذيل سماه « جامع التصانيف الحديثة » التي طبعت في البلاد الشرقية والغربية والاميركية من سنة ١٩٢٠ — ١٩٢٦ م الموافقة لسني الهجرة ١٩٣٩ — ١٣٤٥ وهو في جزأين ظهر الاول في مصر ، مطبعة سركيس عام ١٩٢٦ في ١٣٦ صفحة ، قطع صغير . أما الثاني فيحتوي على مطبوعات سنة ١٩٢٧ وفيه تصحيح أغلاط ما ورد في الجزء الاول وما أغفل ذكره من المطبوعات ، ظهر في مصر سنة ١٩٢٨ م في ٦٠ صفحة ، وقد وزع فيهما أسماء الكتب بين سبعة أقسام عامة .

ومن فهارس الكتب المهمة : « فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات » تأليف الامام عبد الحي الكتاني ، وهو قاموس عام لتراجم المؤلفين في السنة من القرن الثامن إلى سنة ١٣٤٦ هـ . وذيل على طبقات الحفاظ والمحدثين للحافظين ابن ناصر والسيوطي ، التي وقفا فيها على أواسط القرن التاسع ، فذيل عليها إلى زماننا هذا ، أي إلى أواسط القرن الرابع عشر .

ويقع هذا الفهرس في جزأين ... من قطع الثمن الكبير ، كاد يجمع فيه صاحبه الفهارس والاثبات التي ألفت في علم الرواية مع بيان روايته لها وطريقه إلى مؤلفها ، وبيان ما طبع منها مع تراجم كثير من الحفاظ والمحدثين . وهو ناطق بسعة علم مؤلفه وكثرة اطلاعه وعظيم عنايته بعلم الحديث . وقد ذكر في بدء الجزء الاول ما له من المؤلفات التي أربت على المئتين ، وتجد ثبتاً لها في مقدمة الكتاب المذكور المطبوع في المطبعة الجديدة بالطالعة في المغرب سنة ١٣٤٦ هـ . وهكذا قلما تجد عالماً في الاسلام اشتغل بالحديث وعلومه اشتغالاً بعيداً ارتفع

به ذكره إلا وتجد ترجمته فيه مبسوطة ، وفيه من التراجم ما لم يجمع قبل في ديوان (١) .

وفي السنة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) صدر في النجف الأشرف كتاب «هدية الاحباب في ذكر المعروفين بالكنى والألقاب والأنساب» لمؤلفه عباس ابن الشيخ محمد رضا القمي ، وهو مطبوع في مطبعة حجرية .

وظهر سنة ١٩٣٦ م في القاهرة « فهرس مكتبة مختار بك » طبعه نجله مصطفى محرم بك القاضي بالمحاكم المختلطة بمصر ، وهو مطبوع باللغتين العربية والفرنسية ، وبلغ عدد صفحاته ١٦٠ صفحة .

ومن أهم الفهارس التي أنتجتها المطابع العربية حديثاً كتاب « الذريعة إلى تصانيف الشيعة » لمؤلفه محمد محسن الشهير بالشيخ آغا بزرك الطهراني . ظهر سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) في النجف في مطبعة الغري في جزأين ...

ونشر المستشرق المعروف فريتس كرنكو سنة ١٩٣٧ كتاب « أخبار النحويين البصريين » لمؤلفه أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي ، وهذا السفر يرقب النحويين البصريين فيجعل منهم طبقات ، ثم يقارن فيما بينهم حتى أنك تستطيع أن تميز النحوي الثقة من النحوي الضعيف . وللكتاب ثلاثة فهارس : أولها لأسماء الرجال والقبائل ، والثاني لأسماء الأماكن ، والفهرس الثالث لأسماء الكتب (٢) .

ومن الفهارس الهامة التي لا يستغنى عنها في علم الرجال والتآليف مما ظهر حديثاً كتاب « أعيان الشيعة » وضعه حجة الاسلام السيد محسن الأمين الحسيني العاملي ، وهو تأليف خطير لا مثيل في اللغة العربية ، جامع لتراجم أعيان الشيعة من مبدإ الاسلام إلى اليوم مع ذكر طبقات علمائهم ونبهائهم وشعرائهم وأدبائهم وكتابهم ومصنفيهم في جميع الفنون ، برز منه للآن (٢٠) جزءاً ، وهو مطبوع في دمشق في مطبعة ابن زيدون . ظهر الجزء

(١) راجع في الجزء الأول من هذا الكتاب عرضاً موجزاً لمسعود الكواكبي في مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق مجلد ٩ : ١٢٥

(٢) المقتطف ، مجلد ٩٢ (١٩٣٨) : ٥٩٩

الأول منه سنة ١٩٣٥ ، وهو مرتب على حروف الهجاء بعد أن مهد إليه بسيرة النبي وسيرة علي وأهل بيته . وللكتاب المذكور مسردان الأول للأعلام والثاني للبلدان والقبائل [١] .

ومن تلك الفهارس الهامة « كتاب الأعلام » لخير الدين الزركلي مستشار المعتمدية السعودية في مصر ، وهو قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين ، في الجاهلية والاسلام والعصر الحاضر ، مع لمحة وجيزة عن أشهر مصنفاتهم . وهذا المعجم مرتب على حروف الهجاء ، يعتمد في ترجمة الأعلام على الاسم الأول ثم يضم ما يليه إليه ، وأجريت فيه الأسماء المركبة مجرى الأسماء المفردة ، وهي طريقة معقدة على ما نرى ، تدعو إلى الارتباك والبلبلة وإضاعة الوقت في التحري عن المطلوب ، وكان من الأوفق إثبات الأسماء بحسب شهرتها . ومن حسناته إثبات المصادر في ذيل الصفحات ، كما أنه يذكر سني الولادة والوفاة بالتاريخ الهجري والمسيحي .

ويقع كتاب الاعلام هذا في ثلاثة أجزاء تبلغ صفحاتها معاً ١١٨٧ صفحة ، طبع سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٣٧ م) في المطبعة العربية في مصر ، وسيليه « المستدرك » الذي يلمح إليه المؤلف في مقدمته إذ يقول « نباشر الطبع على أن نلحق الكتاب بجزء متمم له نستدرك به ما نحاذر فواته » .

ومن فهارس الكتب مؤلف لا يزال مخطوطاً ، وضعه الشيخ علي آل كاشف الغطاء (١٢٦٦ - ١٣٥٠ هـ) في بضعة مجلدات ، وقد سماه : « الحصون المنيعة في طبقات الشيعة » فضمنه رواتهم ومحدثيهم ومؤرخيهم وعلماءهم وشعراءهم وملوكهم وأمراءهم ووزراءهم [٢] ، وهذا المخطوط محفوظ بكل حرص في خزانة المؤلف التي انتقلت بعد وفاته إلى ورثته .

---

(١) راجع في نقد هذا الكتاب وتقديره : العرفان مجلد ٢٦ : ٢٩٣ ومجلد ٢٧ : ٥٧٤ و ٧٥٧ . أيضاً العرفان مجلد ٢٦ : ٣٧٩ بامضاء عاملي متعرق . وصفحة ٤٥٥ بامضاء عبدالله بري ، وصفحة ٥٣١ بامضاء هبة الدين الحسني ، وصفحة ٦١١ بامضاء علي الزين ، وصفحة ٧٠٠ بامضاء بهاء الدين ، وصفحة ٧٧٩ ، ومجلد ٢٧ : ٦٩ بامضاء مصطفى جواد ، ومجلة الغري ج ٧ عدد ٧ و ٨ (١٩٤٧/١٢/٨) : صفحة ٢٧

(٢) مجلة لغة العرب ، بغداد مجلد ٢ (١٩١٣) : ٣٧٥

ولا يسعنا إلا أن نخص بكلمة النشرة الدورية التي أصدرتها باللغتين العربية والانكليزية إدارة « مكتبة السلام » في بغداد ، وذلك في أواخر سنة ١٩٢٢ . وكانت ترمي من نشرتها هذه إلى وصف الكتب التي تصدر باللغات الشرقية كالعربية والفارسية والتركية والعبرية والسريانية والهندية كما تصف تلك التي تنشر باللغات الفرنجية كالانكليزية والفرنسيه والالمانية وكان يقوم بتحبير هذه النشرة لجنة مكتبة السلام المؤلفة من أعضاء عرب وبريطانيين[١] ...

ومن فهارس الكتب التي ظهرت موخراً « فهرس المكتبة الأزهرية » الذي أشرفت على وضعه مشيخة الأزهر وتولت طبعه مطبعة الازهر بعد أن قدّمه فضيلة الاستاذ أبو الوفاء المراغي أمين المكتبة إلى المشيخة فأذنت بذلك . ظهر منه للان مجلدان ، وينتظر أن يكون كاملاً في خمسة أجزاء ، فيتناول بالتعريف حوالى ٧٠ ألف مجلد [٢] .

وعمل لمكتبة الأزهر عام ١٢٧٠ — ١٨٥٣ فهارس دوّن فيها جميع ما في المساجد وأروقة الأزهر وحاراته وخزائنه المعروفة إذ ذاك ، فبلغ مجموعها ١٨٥٦٤ مجلداً ، ولكن لا يوجد منها الآن إلا النزر اليسير ، بل إن الفهارس نفسها سرقت ثم أعيدت بالشراء إلى المكتبة عام ١٩١١ ...

٢ — فهارس المخطوطات

أولاً — فهارس المخطوطات في لبنان وسورية وفلسطين ومصر والعراق :

من أقدم فهارس المخطوطات في الشرق فهرس نشره عام ١٨٨١ رهبان القبر المقدس للروم الارثوذكس في القدس للمخطوطات العربية المحفوظة في خزانتهم منذ قرون كثيرة وأثبت الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف أن هذا الفهرس يحتاج إلى تدقيق [٣] .

وطبعت السيدتان مرغريت دنلوب ومسز جبسون (Marg. Dunlop et Miss Gibson) عام ١٨٩٤ في لندن ، فهرساً باللغة الانكليزية للمخطوطات العربية المحفوظة في دير طور سينا ، فوصفتا فيه ٦٢٨ مخطوطاً عربياً لا غير من أصل ٧٠٠ ، ولم تتوفقا إلى وصف سائر

---

(١) مجلة الكلية (بيروت) مجلد ٩ : ٤٨

(٢) الاهرام ١١ — ٣ — ١٩٤٥

(٣) مجلة الآثار مجلد ٢ : ٤٣٨

مخطوطات ذلك الدير . وقد أتم الدكتور (شميدت Schmidt) من علماء برلين باللغتين اليونانية والقبطية ، عملهما ، فوضع سنة ١٩١٤ فهرساً وافياً مصوراً للمخطوطات الشرقية المكنوزة في مكتبة طور سينا وبينها المخطوطات العربية التي سبق لمس مرغريت دنلوب ومسز جبسون درسها [١] ، كذلك راجع في وصف المدير المذكور ثلاث مقالات ظهرت في المقتطف [٢] ، وآخر للسيد يسي عبد المسيح في مجلة الراعي الصالح بعنوان : « مكتبة دير سينا » [٣] .

وفي سنة ١٩٠٢ نشر المؤرخ البحاثة حبيب الزيات كتابه « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » والكتاب المذكور يقع في أربعة أجزاء : الأول عن الخزانة الظاهرية في دمشق ، والثاني عن صيدنايا ومكتبة دير الشاغور ، والجزء الثالث عن معلولا ، والرابع عن يبرود ومكتبة المطران غريغوريوس عطا [٤] . وعنه أخذ المرحوم الأب لويس شيخو مقاله المعنون « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » المنشور في المشرق ج ٥ (١٩٠٢) : ٩٧ و ٩٥٧ .

ونشر المطران أدي شير (١٨٦٧ — ١٩١٥) [٥] فهارس مشروحة للمخطوطات القديمة التي كانت محزونة في خزائن كرسيه في سعرت [٦] وذلك بعنوان « قائمة المخطوطات السريانية والعربية المصونة في مكتبة الكلدان في سعرت (كردستان) الموصل ، ١٩٠٥ ص ١٠١ ، ونشر كذلك في باريس عام ١٩٠٧ ، فهارس لمخطوطات الطائفة الكلدانية في خزائن الكرسي البطريركي بالموصل التي كانت تشتمل على مئات المخطوطات الثمينة البالغة من العمر مئات السنين ، بعضها على الرقوق ، ومنها على الورق الأسمنجوني من صناعة القرن

(١) توفيق أسكاروس : مقالة له في الهلال ، مجلد ٣٦ (١٩٢٨) : ٧٣٠

(٢) مجلد ١٨ (١٨٩٤) : ٢٨٧ و٣٦٥ و٨٣٩ ، راجع أيضاً في عمل هاتين السيدتين المقتطف ٢٠ : ٢٩٤ و ج ٢٦ : ٧٤٩

(٣) (١٩٤٠) : ٣٣

(٤) راجع فيه المقتطف ، مجلد ٢٨ (١٩٠٣) : ٤٣٦ ، والضياء ٥ : ٥٤

(٥) راجع في المطران أدي شير مجلة النجم ١ : ١٦٧

(٦) المشرق ٨ (١٩٠٥) : ٨١٧

الحادي عشر ، تترصع في الآيات الانجيلية بمحلول الذهب ، كأنها النجوم متلألئة في القبة الزرقاء [1] . كذلك نشر سيادته في السنة نفسها ومابعدها فهرس مخطوطات مكتبة ديار بكر ومكتبة ماردين ، ومكتبة دير السيدة بجوار القوش ...

وفي السنة ١٩٢٤ طبع المستشرق أغناطيوس كراتشقوفسكي فهرساً مختصراً في اللغة الروسية لمجموعة المخطوطات العربيـــة التي نقلت من البلاط القيصري إلى مكتبة المتحف الآسيوي في بطرس برج ...

وفي السنة ١٩٢٥ ظهر فهرس عنوانه : « مخطوطات الخزانة المعلوفية في الجامعة الأمريكية » تضمن وصفاً مختصراً لحمائة كتاب من نفائس المخطوطات العربية ، بينها بعض الكتب الفارسية والتركية والسريانية واليونانية ، وهذه المخطوطات ابتاعتها الجامعة الأميركية من خزانة الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف في زحلة .

ومن أهم الفهارس التي اطلعنا عليها كتاب « مخطوطات الموصل » [2] تأليف الدكتور داود الجلبي الموصلي ، وقد ضمنه أسماء الكتب المخطوطة التي وقف عليها بذاته في مدارس الموصل ومساجدها وأديارها ، وفي خزائن الأسر المشهورة ، وهي لا تقل عن ثلاثة آلاف وثلاثمائة مخطوط ، عددها المؤلف ووصفها وصفاً علمياً مدققاً [3] ...

ونشر الأب بولس سباط ، باللغة الفرنسية ، فهرساً غير ما تقدم ذكره ، للمخطوطات العربية جاء في ثلاثة أجزاء : الأول منها للمخطوطات التي يعود عهدها إلى ما قبل القرن السابع عشر ، والثاني والثالث خاصان بمخطوطات الاجيال الثلاثة الاخيرة والمخطوطات الغفل مع ملحق لها ...

ومن الكتب المهمة في تعريف المخطوطات العربية ووصفها ، كتاب هام لا يزال — مع الأسف — مخطوطاً هو « التذكرة الطاهرية » لصاحبها المرحوم الشيخ طاهر الجزائري

---

(١) القس سليمان صائغ : تراث الأقدمين ، مجلة النجم ، مجلد ١٠ : ٢

(٢) بغداد مطبعة الفرات (١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م) في ٣٨٩ صفحة ، قطع ٤ .

(٣) راجع فيه نقداً لمحمد حسني الكسم في مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ٨ : ٧٠١ — ٧٠٤

في أكثر من عشرين مجلداً ، تبحث في نوادر المخطوطات ومحل وجودها ومزاياها وأمثلة منها وغير ذلك من المعلومات التي يستعين بها المحققون في تحرياتهم عن المخطوطات العربية (١) .

وخلف الدكتور « الفونس منكنا » الموصلي (١٨٨٢ — ١٩٣٧) فهرساً علمياً شاملاً للمخطوطات العربية تربو صفحاته على ألف ومائتي صفحة . غير أن هذا الفهرس لم يزل غير مطبوع حتى الآن . وكان الدكتور منكنا من أكبر جماعي المخطوطات العربية والسريانية ومديراً لدائرة اللغات الشرقية في خزانة كتب (جون ريلاندس G. Rylands) في منشستر بانكلترا (٢) .

وله بالانكليزية تعاليق على أندر المخطوطات العربية والفارسية في تلك الخزانة نشرها سنة ١٩٢٢ بعنوان :

Mingana (Alph.) - Brief notes on some of the rareor unique Arabian and Persian mss. in John Rylands Library – Aberdeen, Univ. Press, 1922 ...

وفي مكاتب النجف القديمة والحديثة كثير من المخطوطات العربية النادرة المثال ، والمنقطعة النظير . وإنك لتجد وصفاً لأهم هذه الخزائن ولما فيها من المخطوطات في كتاب « ماضي النجف وحاضرها » لمؤلفه السيد جعفر ابن الشيخ باقر آل محبوبة (٣) ، وقد اعتمد في ذكر مكتبات النجف ووصف ما فيها من الغرر والدرر على كتاب « نهج الصواب في المكاتب والكتابة والكتّاب » وهو لا يزال مخطوطاً ، لمؤلفه العلامة الشيخ علي آل كاشف الغطاء .

ومن قوائم المخطوطات العربية النادرة « الكنز المدفون في أسماء الكتب والفنون » تأليف الشيخ يوسف توما البستاني ، وهو كتيّب وضعه في مصر عام ١٩٤٠ ذكر فيه طائفة كبيرة من المخطوطات العربية التي لم يذكرها صاحب « كشف الظنون » حتى تكون تكملة لما فاته . وفيه ذكر لطائفة من المخطوطات العربية في التصوف الاسلامي والفقه على

---

(١) عيسى اسكندر المعلوف ، المشرق مجلد ١٨ : ١٤٤ — ١٤٨

(٢) مجلة المؤرخ (بغداد) لمنشئها رزوق عيسى ، مجلد ٢ (١٩٣٨) : ٦٢

(٣) نشر الكتاب المذكور في مطبعة العرفان في صيدا سنة ١٣٥٣ في ٣٠٤ صفحة قطع ٨

المذاهب الاربعة والتوحيد والمصاحف النادرة ، والصرف والنحو ، وفي علوم الفلك والطب والمنطق والفلسفة والدواوين الشعرية والكتب التاريخية والقواميس وكتب اللغة والبلاغة ، وذكر أمام كل مخطوط اسم مؤلفه .

ومن فهارس المخطوطات العربية التي ظهرت أخيراً في بدء هـذه السنة : « فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية » في دمشق ، نشر منه الجزء السادس ، بعناية الاديب البحاثة صديقنا الاستاذ يوسف العش ...

فهارس أوراق البردي العربية — ومن الفهارس الهامة للمخطوطات العربية « فهارس أوراق البردي العربية » ، فان مكتبة فينـة الوطنية تحتفظ بمجموعة هامة من أوراق البردي المصرية والعربية القديمة ، وقد وصفها العلامة الاثري الدكتور (فريد مان) لمناسبة ما قرره مؤتمر الاوراق البردية من الانعقاد في مدينة فينة لسنة ١٩٣٩ بأنها هي المجموعة الثانية في العالم من حيث كميتها وقيمتها الاثرية ، وقد نقلت هذه المجموعة من مصر إلى النمسا في أواخر القرن الماضي واشتراها الارشيدوق « رينو » ثم وهبها بعد ذلك مكتبة فينة الوطنية (١) ...

ومن العلماء الذين عنوا بدراسة أوراق البردي العربية وتنظيم فهارس لها الدكتور « أدولف جروهمان » أحد أعلام الاستشراق في ألمانية وأستاذ الثقافة الاسلامية واللغات السامية بجامعة براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، وهو يعنى بناحية دقيقة في التاريخ الاسلامي . وعلى الرغم مما يكتنف هذه الناحية في البحث من الصعوبات الجمة فقد ذللها ببحوثه التي نشرها في مؤلفاته وفي المجلات الكبرى التي تعنى بالدراسات الشرقية . ومن ثم عهدت إليه الحكومة المصرية بدراسة أوراق البردي العربية المحفوظة في دار الكتب المصرية في القاهرة وهو ينوي إصدارها في سبعة مجلدات مع التعليق عليها ، نشر منها حتى الآن ثلاثة باللغة الانكليزية مقارناً لها بأوراق البردي اليونانية . وقد ترجم الجزأين الاولين منها الدكتور حسن إبراهيم أستاذ التاريخ الاسلامي في كلية الآداب في جامعة الملك فؤاد (٢) .

(١) الرسالة (مصر) عدد ٢٣٦ (١٠/١/١٩٣٨) : ٧٧

(٢) » » » » ٢٤٨ : ٥٩٥

ثانياً – فهارس المخطوطات في شمالي إفريقية : أما المخطوطات العربية في إفريقية الشمالية فقد وضع لها المستشرقون فهارس تضمنت وصف الكثير من تلك المخطوطات المخزونة في الخزائن العامة والخاصة ، وهاك بعض ما عثرنا عليه :

أولاً : فهارس المخطوطات في الجزائر –

١) فهرس المكتبة الاهلية – وضع المستشرق (فانيان E. Fangan) فهرساً للمخطوطات العربية والتركية والفارسية الموجودة في مكتبة مدينة الجزائر الاهلية ونشره ضمن الفهرس العام لمخطوطات المكتبات العامة في فرنسا في المجلد الثامن عشر المطبوع في باريس عند الصحاف (بلون) سنة ١٨٩٣ وهو يقع في ٣٠ + ٣ + ٦٨٠ صفحة ، مع فهارس ومسارد متنوعة بأسماء الكتب وأسماء المؤلفين والنساخ .

E. Fagnan – Catalogue des Mss. arabes, turc et persans de la Bibl. - Musée d' Alger. - Dans Catal. Général des Mss. des Bibl. Publiques de France. Départementstome, XVIII, Alger (- Paris, plon, 1893, in 8, p. XXX+ III, 680, avec Tables Générles, titres et mots arabes.

٢ – فهرس خزانة الجامع الكبير – وضع المرحوم محمد بن شنب فهرساً لمكتبة الجامع الكبير في مدينة الجزائر بعنوان :

Ben Cheneb (M.) - Catalogue des Manuscrits Arabes de la Grande Nasquée d' Alger. (Catalogue des Mss. Ar. Conservés dans les principales Bibliothèques publiques algériennes) - Alger, A. Jourdan, 1909, in - 4° p. XVIII + 10 + 19' avec index des noms d'auteurs.

وصف فيه ١٠٦ مخطوطة عربية .

٣ – فهرس مكاتب الزوايا ، وضعه المستشرق « رينه باسيه » وطبع في الجزائر سنة ١٨٨٦ م ، فجاء في ٨٧ + ٩ + ١٢ + ٤٩ صفحة *R. Basset - Les Mss. ar. des Bibl. des Zaouias*

ثانياً : فهارس المخطوطات في تونس – يوجد في مدينة تونس خزائن عديدة

خاصة أو عامة تزخر بالمخطوطات العربية ، وضع لها بعض المستشرقين الفرنسيين فهارس تولت وصف مافيها من الغرر والدرر ومن تلك الفهارس فهرس وضعه السيدان (هوداس وباسيه Houdas et Basset) بعنوان : « رحلة علمية إلى تونس » (١٨٨٢) ، وطبع الفهرس المذكور في مدينة الجزائر سنة ١٨٨٤ ، بعد أن نشر اه في مجلة المراسلات الافريقية مجلد ٣

Bulletin de la Correspondance Africaine, V. III

ووضع السيد (روى Roy) بالاشتراك مع محمد الحشايشي ملخصاً لفهرس المخطوطات والمطبوعات الموجودة في مكتبة الجامع الكبير في تونس بعنوان :

Extr. du Catal. des Mss. des Impr. de la Grande Mosquée de Tuuis.

ظهر منه الجزء الاول ، وهو خاص بالتاريخ ، وطبع في تونس في ٣ + ٨٥ صفحة مع مصارد مفصلة بعناوين الكتب وأسماء المؤلفين والنساخ ، تناول فيه وصف الكتب والمخطوطات الموجودة في المكتبة العبدلية والمرقومة بين ٢٨٧٦ - ٣٥٧٥ وفي مكتبة الجامع الكبير بين ٤٨٠١ - ٦٨٠٢

أما مكتبة جامع الزيتونة هذه فتقسم إلى قسمين : جمع القسم الاول منهما الكتب التي دخلت الخزانة بعد تأسيس الجامع المذكور سنة ٦٤٧ هـ ، إلا أنها عبث بها الزمن فيما بعد ، فتفرقت بصروف الدهر ولم تجدد إلا في أواسط القرن الماضي ، ومعظمها من المخطوطات . أما القسم الثاني من هذه الخزانة ، وهو المعروف بالخزانة العبدلية أو الصادقية ، فجمع في خزانة واحدة المؤلفات العربية المبعثرة في مجامع تونس ومساجدها وأودعها الخزانة المعروفة بالخزانة العبدلية ، في الجامع الكبير ، وفيها من المخطوطات ما يزيد على ٤٨٠٠ مخطوط ، وكلا القسمين غني بالمؤلفات الاسلامية ، ولا سيما بكتب التفسير والحديث .

ثالثاً : فهارس المخطوطات في المغرب الأقصى —

١) في مدينة فاس : نشر المستشرق (رينه باسيه) فهرساً للمخطوطات الكائنة في خزانة جامعة القرويين ونشره في مجلة المراسلات الافريقية Bull. Corresp. Africainne سنة ١٨٨٣ في الصفحة ٢٦٦ - ٣٩٣ .

٢) في مدينة طنجة — أما مخطوطات مدينة طنجة فقد عني بدرس الموجود منها في

خزانة متحف البعثة العلمية المستشرق (بلوشه Blochet) ووضع لها فهرساً بعنوان : فهرس متحف البعثة العلمية في مراكش وظهر الكتاب مطبوعاً سنة ١٩٠٩ بقطع ٨ .

أما خزانة الكتب الموجودة في الجامع الكبير في مدينة طنجة ، فقد نشر فهرساً لها السيد (ميّار Maillad) في مجلة العالم الاسلامي (R. M. M.) سنة ١٩١٧ — ١٩١٨ صفحة ١٠٧ - ١٩٣ (١) .

٣) في مدينة رباط الفتح — وفي المعهد العلمي للدراسات المغربية في رباط الفتح خزانة غنية بالمخطوطات العربية وضع لها المستشرق (ليفي بروفنسال) بعنوان (المخطوطات العربية في خزانة رباط) .

Levi - Provençal - Les Mss. Arabes de Rabat - Paris, Leroux, 1922 in 8, P. 378

وصف فيه ٥٤٤ مخطوطاً عربياً في فنون مختلفة من مواضع العلوم الاسلامية (٢) .

وقد زاد عدد المخطوطات في تلك الخزانة بعد الفهرس المذكور ، أي بين سنة ١٩٢١ — ١٩٣٠ زيادة كبيرة ضاعف عددها فبلغ في بدء عام ١٩٣٠ ما قدره ١٠٥٦ مخطوطة ، وذلك بفضل المشتريات والهبات والاعطيات والوقوفات التي أجراها بعض الفضلاء من نصراء العلم على هذه الخزانة . الامر الذي جعل مستحباً وضع جزء ثان للفهرس الاول يتناول وصف المخطوطات الجديدة التي لم يصر درسها من قبل .. وبانتظار هذا الجزء نشر السيدان (بلانشير ورينو R. Blanchère et H. Renaud) ثبتاً مختصراً بالمخطوطات العربية التي دخلت خزانة المعهد العلمي للدراسات المغربية في رباط ، سنة ١٩١٩ — ١٩٣٠ ، وصفاً فيه ٩٦ مخطوطاً جديداً (٣) .

وقد زاد عدد المخطوطات في هذه الخزانة زيادة كبيرة أيضاً بين ١٩٣٠ — ١٩٣٩ إذ بلغ عددها في غرة سنة ١٩٣٩ نحواً ٢٠٣٠ مخطوطاً (٤) .

---

(١) راجع مقال (ليفي بروفنسال Levi - Provençal) : « المطبوعات الاخيره في تاريخ المغرب » ١٩١٤ — ١٩٢١ ، المنشور في مجلة (هسبرس Hespéris) مجلد ٢ (١٩٢٢) : ٤٤١

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي ٢ : ٣٨٢

(٣) مجلة (هسبريس Hespéris) ١٢ (١٩٣١) : ١٠٦ — ١٣٣)

(٢) راجع الدليل العام المسمى (Index Généralis) طبعة ١٩٣٩

٤) مكتبة جامعة القرويين — وقد وضع فهرس الكتب العربية الموجودة في خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس المستشرق الفرنسي (الفرد أوكتاف بل) ١٨٧٣ — ١٩٤٥ في كتاب عنوانه : (*Bel, A. O.*) - *Catalogue des livres arabes de la Biblisthèque de la Mosquée d'El Quarawyin - Fès, Impr. Municipale 16 p. texte fr. + 160 p. texte arabe*

ثالثاً — فهارس المخطوطات في الهند :

وفي الهند أيضاً خزائن غنية بالمخطوطات العربية ، وضع لها العلماء الفهارس المفصلة ، وهاك أهمها :

في كلكوتا : ١) خزانة المكتبة الآسيوية — وضع فهرس مخطوطات هذه الخزانة السيد شمس العلماء الميرزا أشرف علي بعنوان : « فهرس الكتب والمخطوطات العربية في مكتبة الجمعية الآسيوية في البنغال :

A Catalogue of Arabic Books and Mss, in the Libray of Asiat. Soc. of Bengal

والفهرس المذكور يقع في جزأين ظهر أولهما سنة ١٨٩٩ والثاني عام ١٩٠٤ في ١٥٣ ص قطع ٤ .

٢) خزانة الجامعة — ووُضع لخزانة الجامعة فهرس بعنوان « فهرس المخطوطات العربية والفارسية الموجودة في خزانة جامعة كلكوتا » وضعه السيدان كمال الدين أحمد وعبد المقتدر ، وقدم له مقدمة وافية المستشرق (دنيسون روس) . ظهر الفهرس المذكور عام ١٩٠٥ ، وهو يقع في ٤ + ٢٤ صفحة ، وفيه وصف ١٠٣ مخطوطات عربية و ٨٠ مخطوطاً فارسياً .

٣) مكتبة بوهار — ووضع شمس العلماء وهداية حسين خان باهادور فهرساً لمخطوطات مكتبة بوهار في كلكوتا ظهر في مجلدين سنة ١٩٢٣ تحت العنوان التالي :

« *Catalogue Raisonné of the Buhar Library, vol II. Catalogue of the Arabic Mss. Calcutta, 1923, Imperial Library. 617 p.* »

وقد فهرسا فيه ٤٦٦ مخطوطاً عربياً ، وألحقاه بمسارد عديدة ، منها مسرد بعناوين الكتب مع الاشارة إلى مظانها في الدليل المذكور (ص ٥٢١ — ٥٦٢) ، ومسرد آخر بالانكليزية بأسماء المؤلفين (ص ٥٧٣ — ٥٩٩) ، وأرفداه بفهرس ثالث بموضوعات العلوم وما تحتها من الكتب التي جاء وصفها في الفهرس (ص ٦٦٦ — ٦١٩) .

في بمباي — وضع السيد (إدوارد ريهاتسيك Ed. Rehatsek) فهرساً للمخطوطات العربية والهندستانية والفارسية والتركية الموجودة في خزانة المولى فيروز في بومباي بعنوان *Descriptive Catalogue of the arabic, Hindustani, Persiana and Turkish Mss, in the Mulla Firuz Library.* طبع سنة ١٨٧٢ وفيه ٨ + ٢٧٨ صفحة ، وتناول بالوصف ٥٦٠ مخطوطاً .

في بانكيبور (Pinkipore) — فهرس المخطوطات العربية في المكتبة العمومية الشرقية في بانكيبور ، قام بوضعه لفيف من العلماء تحت إشراف (دنيسون روس ، والفهرس المذكور يقع في أربعة مجلدات ظهرت تباعاً :

الاول — في كلكوتا ١٩٠٨ ص ١٠ + ٢٧٤ ، قطع ٨

الثاني — ١٩١٠ ص ٨ + ٢٢٠ قطع ٨

الثالث — ١٩١٢ ص ٩ + ٢٦٧ + ٨٠٠

الرابع — ١٩١٠ ص ٦ + ١٠٨ + ٨٠٠ خاص بالمخطوطات العربية .

« *Catalogue of the Persian and arabic Mss. of Oriental Publique Library of Bankipore, Prepared for the Government of Bengal, under the Superuision of E. Denison Ross, IV vols.* »

في مدراس — فهرس أبجدي للمخطوطات السنسكريتية والعربية والفارسية والهندستانية الموجودة في مكتبة حكومة الهند الشرقية في مدراس ، ظهر الفهرس المذكور سنة ١٨١٣ في ٣٦٤ ص من القطع الكبير بعنوان :

« *Alphabétical Index of Mss. (Sanskrit, Arabic. Persian and Turkish » in the Government Oriental Library - Madras.* »

ووضع السيد (ش . ستيورت Ch. Stewart) لخزانة ميزور فهرساً يصف به المخطوطات الشرقية الموجودة في تلك الخزانة ، ونشره في كمبردج سنة ١٨٠٩ في ٩٤ + ٣٦٤ صفحة قطع ٤ ، واصفاً فيه ١١١٧ مخطوطاً عربياً وفارسياً .

في حيدرآباد — لخزانة هذه المدينة دليل بعنوان « فهرس الكتب المطبوعة والمخطوطة الموجودة في المكتبة الملوكية في حيدرآباد » ومعظم هذه الكتب باللغة الفارسية ، ظهر الفهرس المذكور في حيدرآباد سنة ١٩٠٠

ومن الفهارس العامة للمخطوطات العربية في الهند فهرس وضعه السيد هاشم الندوي بعنوان « تذكرة النوادر » يحوي صفوة المخطوطات العربية النادرة في الهند ، تولت الاخذ به وإعداده « جمعية دائرة المعارف » بناء على رغبة جلالة السلطان ميرعثمان علي خان وانتدبت الاستاذ الندوي له ، فرحل في نواحي الهند منقباً في بطون الخزائن ... وطبع الكتاب المذكور في حيدرآباد الدكن .

وقد تناول هذا الكتاب بالنقد الاستاذ تقي الدين الهلالي في مجلة « الضياء » الهندية مؤاخذاً المؤلف إغفاله ذكر حجم الكتاب وعدد أجزائه ، وأنه فاته ذكر كتب كثيرة ونادرة في أقطار العالم الاسلامي ، لا سيما في المغربين الادنى والاقصى [1] .

وقد ذكر الاستاذ أسعد داغر الذي نقلنا عن كتابه « دليل الاعارب » ما تقدم ، مجامع المخطوطات في بعض الخزائن الخاصة في العالم العربي من صفحة ٩٤ — ٩٨ ، ثم وصف بعض المخطوطات النادرة من صفحة ٩٩ — ١١٠

(١) راجع مجلة المجمع ، مجلد ١٢ : ٧٠١

الثقافة العربية والنهضة وآمالها

الأحداث التي أصابت الثقافة العربية أدت إلى هجوعها حيناً طويلاً حتى آن لها النهوض ، وكان ركب الثقافة الغربية قد تقدمها تقدماً لا تقوى على بلوغه إلا بعد جهد جاهد ، ذلك أنه (تطلع العلماء في جميع أقطار العالم الاسلامي إلى مهرب يلتجئون إليه بعد أن تحكم التتار في حاضرة الاسلام ودار السلام .. فلم يجدوا غير مصر ... وهكذا نهضت مصر نهضة علمية مباركة في هذه الأيام ، وأهم أسباب هـــذه النهضة غيرة العلماء وحزمهم على إعادة مجد الاسلام الذي بعثرته أيدي التتار ، ثم معاضدة الملوك والأمراء ورجال الدولة العلم وأهله) (١).

ولقد كانت لثقافتنا فترات غفلة في عهودها ، هجرت فيها العلوم الكونية على شدة الحاجة إليها ، ولم يجد الغافلون في فلتات زمنية حكيمة أتاحت لهم اليقظة ، لعل أهمها (آراء ابن خلدون في مقدمتـــه لم يجدوا مجالاً للعمل وحافزاً إلى النهوض ... حتى نشرت في أوائل نهضتنا ، فكانت ركناً شديداً من أركان الثقافة المصرية) (٢) . وعلى كل حال فان ما عنى به أنصار الدين والعربية جعل (ذماء العربية ينبض في جوانب بيت الله الحرام بالحجاز ، والأزهر بالقاهرة ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، وفي مساجد اليمن والقدس والشام والعراق والآستانة والهند وغيرها من عواصم الاسلام) (٣) .

ولا نكران ان نهضة مصر بعدئذ ـ وقد آن أوانها ـ كانت أرسخ أصولاً ، وأشد عزماً ، وأعم تأثيراً ، لنتصور حال مصر قبل فجرها وهي تمشي وئيداً بعد الفتح العثماني عام ١٩٢٣

(١) المفصل في تاريخ الادب العربي للاستاذ أحمد الاسكندري وزملائه ج٢ ص١٨٩ و ١٩٠

(٢) ص ١٩٢

(٣) المدخل في تاريخ الادب للاستاذ محمد بهجة الأثري ص ١٦

وهي لا تكاد تعلم عن نهضة الغرب شيئاً ، بعد أن عانت ما عانت من حكام أفاقين ، غلاظ الأكباد ، رقاق الأديان ، دقاق الاخلاق ، لا غاية لهم من الحكم إلا طلب الابهة وإظهار السطوة أو بسط الظلم والجور ، وإهلاك النفوس في سبيل استخراج الأموال ...) (١) .

و (لما بلغ الضعف بمصر ذلك المبلغ وزادها وهناً على وهن تنازع المماليك على الحكم واستقلال كل منهم برقعة من البلاد ، وتربص بعضهم الدوائر ببعض طلباً الاستئثار بالحكم وبسطة السلطان ، وقيام الحروب بينهم في هذا وشن الغارات وضعف شأن الوالي ، ممثل الخليفة العثمانية في هذه البلاد ، واكتفاؤه بما يحمل إلى الدولة العليـــة كل عام من الخراج ، وما يستخرج لنفسه من كرائم الأموال - لم يصبح عسيراً على بونابرت أو على غيره من الغزاة أن يطمع في فتحها وتملكها بلا كبير عناء) (١) .

وفي مستهل سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) احتل الفرنسيون مصر ولبثوا فيها ثلاثة أعوام حتى أجلاهم العثمانيون والانجليز (فعادت مصر إلى حكم الدولة العثمانية اسماً واستبداد المماليك واستئثارهم بالأمر فعلاً) (٢) .

ثم لنتطلع إلى مصر وقد قيض الله لمحمد علي باشا رأس الاسرة الخديوية أن يغدو والياً عليها سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) وأن يعتز بالعروبة الاسلامية على كونه البانيا فيضع أسس النهضة التي اتجهت اتجاهها في عصر إسماعيل باشا وسارت سيرها من بعد أيضاً .

ولا نكران مع ذلك لفضل الحملة الفرنسية بما أعقبها من معاهد العلم وآثاره والحياة الحديثة وآثارها . (٣)

---

(١) المفصل ج ٢ ص ٢٨٦

(٢) ص ٢٨٧

(٣) من طريف ما ذكره الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور مما شاهده في المجمع العلمي المصري الذي أقامه الفرنسيون مما يصور غفلتنا حينئذ ونهضتهم قوله : (ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً في كأس ، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر ، فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتياً . وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار =

سلكت النهضة العلمية سبلها في مصر وغير مصر كسورية – ولهذه أسباب أخرى للنهوض – ، ورافقتها أيضاً نهضة اجتماعية تأثرت بها وبالحوادث والأحداث الشداد التي وقعت في البلاد ، وكان من آثار تلك النهضة المباركة كتب وصحف نشير إليها لم يكن لها من مثيل في أيام الركود نذكر بفهارس منها :

١ – أشهر أدباء الشرق : نشره عام ١٩٢٥ السيد حسين حسنين في جزأين يقع أولهما في ١٦٠ صفحة والثاني في ٢٢٠ صفحة ضمنها بحوثاً شتى وتراجم للأدباء الأعلام في الشرق .

٢ – معجم المطبوعات العربية والمعرّبة للسيد يوسف اليان سركيس وقد أشرنا إليه وإلى متممه جامع التصانيف الحديثة في الصفحتين ٦٨ و ٦٩ لأن فيه كتباً قديمة وحديثة .

٣ – كتاب أعيان البيان من صبح القرن ١٣ هـ إلى يوم أصدرت الكتاب المطبعة الجمالية في القاهرة عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) ضمنه مؤلفه الأديب السيد حسن السندوبي تاريخ الآداب العربيـــة في هذا العصر وتراجم نوابغ الأدباء من الكتاب والشعراء ، فكان في ٢٣٩ صفحة .

٤ – معجم القصة الموضوعة والمترجمة أتى فيه مؤلفه السيد أسعد داغر على ذكر مايزيد على عشرة آلاف قصة أو رواية عربية مختلفة مع أسماء المجلات الروائية التي ظهرت في العالم العربي ، وذكر في كتابه دليل الأعارب أنه جاهز للطبع .

٥ – الكراس العربي من مراجع ما نشر بعد الحرب العظمى عن بلدان الانتداب في الشرق الأدنى : من المطبوعات في العلوم الاجتماعية ، عن العراق وفلسطين وشرقي الأردن ودول سورية ولبنان (من ١١ تشرين الثاني لعام ١٩١٨ إلى ٣١ كانون الأول لعام ١٩٢٩) مرتبة ترتيباً هجائياً حسب أسماء مؤلفيها ، مع فهرس موجز من موضوعات مختلفة . نشرت

أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة ازعجنا منه فضحكوا منا . وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر ، ضيقة الفم ، فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح بالداخل من الرصاص ، وأدخل معها على غير هيئتها ، وأدخلهما في الماء وأصعدها بحركة انحبس بها الهواء في إحداها ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة ، وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الآخر الشعلة إليها في الحال ، فخرج ما فيها من الهواء المحبوس ، وفرقع بصوت هائل أيضاً » . المفصل ج ٢ ص ٢٨٩

هذه المراجع تباعاً في ثمانية كراريس دائرة العلوم الاجتماعية الأميركية في بيروت باللغات العربية والفرنسية والانجليزية والألمانية والبرتغالية والايطالية ، وباللغات الشرقية : الارمنية والكردية والفارسية والسريانية والتركية . أعدّ الكراس العربي وحرره الاستاذ أنيس فريحة ...

٦ – تاريخ الصحافة العربية الاستاذ الفيكونت فيليب دي طرازي، ظهر من هذا الكتاب حتى الآن اربعة أجزاء الثلاثة الاول عما بين ١٩١٣ - ١٩١٤ نشرتها المطبعة الادبية في بيروت في ١٦٠ و ٢٣٦ و ٩٦ صفحة . والرابع سنة ١٩٣٣ أصدرته المطبعة الاميركية في ٥٤٥ صفحة . ويحتوي التاريخ المذكور على أخبار كل جريدة ومجلة عربية ظهرت في العالم شرقاً وغرباً مع رسوم أصحابها والمحررين فيها وتراجم مشاهيرهم . وقد أثبت في المجلد الرابع بنوع خاص فهارس جميع الجرائد والمجلات العربية التي صدرت في الخافقين منذ تأسيس الصحافة إلى سنة ١٩٢٩ م . وقد بلغ مجموعها إلى ذلك التاريخ ٣٠٢٣ جريدة ومجلة مرتبة جغرافياً أي باعتبار أسماء البلدان والمدن التي ظهرت فيها مع مراعاة تاريخ سني ظهورها . وهو أحسن مصنف على الاطلاق في تاريخ الصحافة العربية لا يستغني عنه باحث (١) .

* * *

لعل أعظم ما يؤخذ على نهضتنا الثقافية كونها تقليدية منجهة اتجاهاً يكاد يكون غربياً صرفاً ؛ لاتينياً في بعض الاقطار السورية ولبنان والمغرب ، وساكسونياً في بعض كمصر والعراق وفلسطين – بعد أن انجهت اتجاهها التركي من قبل – ، حتى أصبح الطالب العربي يكاد يتلقى من العلوم مثلما يتلقى الطالب الغربي لولا اثارة من دين وتاريخ، وبذلك هددت هذه الثقافة الفكرية بل والعاطفية الغربية ما يجب ان يعيش في نفوسنا قوياً من ثقافتنا العربية وما يجب أن يطبع حياتنا القومية من أحوالنا الاجتماعية ، على الرغم مما يلفت النظر إلى ثقافتنا من عناية مقدرة بها من المنصفين المستشرقين أنفسهم الذين احسنوا نشر بعض مجفوّ كتبها معارضين ومصححين ومحققين ومعلقين ومفهرسين ، والفوا ما الفوه من كتب فيها نظار حكيم وفيها عرض جميل في العربية وعلومها وفنونها وتاريخها (٢) وعلى الرغم من صيحات

(١) هذه الكتب نقلناها عن دليل الاعارب للسيد اسعد داغر ص ٦٩ ، ٧٢ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٦٧ .

(٢) راجع عن بعض آثار المستشرقين في المفصل ج ٢ ص ٤١٢ – ٤١٦

الغيور منا على الثقافة الاسلامية والاحوال الاجتماعية الذين يرون ايضاً الاقتصار في الاخذ من الثقافة الغربية على ما نحتاج إليه منها ،فقد طغت المناهج الغربية طغياناً مروّعا في المدارس العربية كثيراً ما اصبح به الطالب العربي غريب الفكر والقلب والعمل ، لا تعدل مآثر اجداده عنده ، بعض مآثر من اخذوا عنهم بالامس واخذوا يسومونهم في عقر دارهم سوء العذاب اليوم ، وشتان بين هداة فاتحين وطغاة مستعمرين .

ولو لم يتبع المقلدون أهواءهم لأيقنوا أن لا معوّل على الغربي في الدين والخلق وما عزّ عليه فهمه من لغتنا وأدبنا وتاريخنا وقد تبقى بعض آثار فنوننا أيضاً خيراً مما زاحمها آثار فنونه، وأنه لامندوحة عن بقاء ذلك كله عربياً خالصاً،ولا ضير علينا بعد إن أخذنا عن الغربي بعض ما وصل اليه مما يقوي حجة ثقافتنا ويسهل سبيلها أو يعلل بعض ما غمض فيها ، عدا ما نأخذه من العلوم الكونية .

ولسنا نطمع الآن في أكثر من ذلك ، وقد يكون لنا شأن في العلوم المادية بعد أن نجدّ فيها جدنا فيأخذ الغرب عنا كرة أخرى،ومع ذلك فان من تراثنا الأدبي نفسه مالا تزال حاجته – وحاجتنا – اليه عظيمة ملحة ، ولكن اذا كنا بذلك زاهدين فأجدر بالغربي أن يكون أزهد منا إلا اذا كان ينشد الحقائق غير مبال بتقصير ذويها وغفلتهم ،الذين يكادير عد كل سطر من صحائف ثقافتهم، بل تكاد تئن كل كلمة بل كل حرف من شدة الغيظ .

ولنعقب على ما ذكرنا بكلمات موجزات :

إن الاسلام دين أحكمت أحكامه بعد أن كان دستوره الإلهي مأدبة الله ، وحبله والنور المبين والشفاء الناجع (١) . . .

وأجدر أن يكون كذلك دين العالمين الذي جمع مقومات الحياة الرشيدة السعيدة ، العزيزة جملة وتفصيلاً .

ولسنا الآن في صدد إثبات هذه الدعوى ولكننا في معرض الشكوى من عدم تقديرها كما ينبغي في مناهج التعليم بحجة أن الدين شيء وأن العلم شيء آخر ، وأن الحياة تعتمد على

(١) مقتبسه من حديث رواه الحاكم (ان هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم . إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء الناجع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه ، لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم . ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد . . .)

هذا العلم ـ كما علموه مادياً . . . ـ ولعل مبعث هذا الافتتان على الدين تقليد الغربي بعد أن سار وراء مفكريه في القرن الثامن عشر والتاسع وقد رأوا أن يعتمدوا على العلم وحده ، وفات أولئك المقلدين (أن العلم ليس كل شيء ، وأنه لا يكفي وحده لاسعاد العالم فانتشار العلم في أوربا لم يمنع الحرب وويلاتها وأهوالها ، ولم يحقق الأمل الذي يبشر به العلماء ، ولو خير أكثر الناس بين بيت أسس على أحدث طراز من العلم والصناعة مجهز بالراديو والتلفون ومكيفات الهواء وأدوات الزينة ونحو ذلك وسكنته أسرة فقدت أحد أبنائها في الحرب وبين بيت أقل مدنية وحضارة ولكن سلم أهله من الحرب وويلاتها لفضلوا البيت الثاني على الاول والحياة الثانية على الحياة الاولى .

ولو كان الانسان جسماً فقط يخضع للعلم لصحت هذه النظرية من جميع وجوهها ولكن الانسان جسم وروح وعقل وقلب ومادة وإرادة فمن قصر النظر أن تنظم الحياة المادية وحدها من غير أن تنظم الروح وينظم العقل وحده ولا ينظم القلب وتجري تجارب المادة على الانسان كأنه جماد من غير أن ينظر الى ارادته الحرة .

لذلك نجحت المدنية الاوربية في باب المادة وما يتعلق بها ولم تنجح في باب القلب وما يتصل به . . .

لقد أراد الماديون أن يؤسسوا نظاماً للاخلاق مبنياً على العقل البحت فلم ينجحوا ان الاخلاق إذا كان يحميها القانون فقط أو الحكومة أو الضمير أو الرأي العام لم تكن أخلاقاً محضة فكل هـــذه الوسائل لا تمنع الاجرام فكم من الجرائم يستطيع الانسان ارتكابها ولا يصل اليها القانون ولا الحكومة ولا الرأي العام ، وما سمي بالضمير ليس إلا مرآة منعكسة للعرف والتقاليد . . .

هذا فضلاً عن أن الدين هو الذي يتفق والطبيعة الانسانية والغرائز البشرية فمن فقد دينه فقد أفسد طبيعته وجزاؤه على ذلك الحيرة والاضطراب وقلق البال وزعزعة النفس وخاصة عند الشدائد أو عند الشيخوخة أو عند حضور الموت (١) .

وليثق المقدرون للعلم أنه (ما الدين إلا علم وما العلم ان كان حقاً لاريبة فيه إلا دين)(٢)

---

(١) التمدن الاسلامي م ١٥ ج ٢٥ و ٢٦ ص ٥٩٢ من مقال للأستاذ أحمد أمين .

(٢) القرآن والعلم للاستاذ أحمد محمود سليمان ص ٣ .

(فان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له)[1] كما قال ابن رشد أيضاً : (ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع ان ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي . وهذه القضية لا يشك فيها مسلم ولا يرتاب بها مؤمن . وما أعظم ازدياد اليقين بها عند من زاول هذا المعنى وجربه وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول . بل نقول إنه ما من منطوق في الشرع مخالف بظاهره لما أدى اليه البرهان إلا اذا اعتبر الشرع وتصفحت سائر أجزائه وجد في ظاهر الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل أو يقارب أن يشهد[2]) . وما أبدع ما أورده ابن تيمية من ذلك في كتابه (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول)

فالخصومة بين العلم (الدين وإنما هي حديثة العهد ونشأت في جزء واحد فقط من العالم ألا وهي البلاد الأوربية ثم تسربت إلى بقية العالم . وقد ظل أثرها عالقاً بالأذهان إلى هذه الايام بلا داع ولا سبب . والواقع أنه لم يكن ينبغي – لولا ما ذكرنا – أن تنشأ بين الدين والعلم خصومة ما ، ما دام كلاهما يحاول أن يدرس الكون وأن يهدي الانسان ، وما دام يتخذان لغاية واحدة وسبيلاً واحداً أو كأنها ، وقد زدت إيماناً حينما تصفحت الكتب المقدسة فوجدت فيها كنوزاً ثمينة كلها علم ، وكلها معرفة ، ولكني أسفت وبلغ مني الالم حينما رأيت هذه الكنوز يعلوها التراب ، ويغمرها الاهمال من جراء تلك النظرية العجيبة في خطئها وفي شيوعها معاً ، والتي ورثتها البشرية عن العصور الوسطى ، عصور الجهل والضلال والظلم ولم تستطع حتى الآن أن تبرأ من تبعاتها وأن تلقيها عن كاهلها مع علمها أن مكان رجال الدين من الانسانية هو مكان المعلم الاول ...)[3]

وإذا كانت الثقة بالغربيين بالغة مبلغها في نفوس كثير من المقلدين فلسنا ندري لم لا يرجع هؤلاء إلى أقوال المنصفين من أولئك وما اكثرهـــا ليعرفوا أي امر عظيم عنه يستغنون ، وأي جرم بذلك يقترفون ؟ هذا مثلاً ليبرتيني الايطالي احد اعلام المستشرقين يعلم أن الازهر يريد ترجمة تفسير جديد للقرآن الكريم فيكاد يطير من الفرح بذلك فيبدي إعجابه بالقرآن وأحكامه إبداء لعظم تلقاءه جريمة المسلمين الذين لم يقوموا بواجبهم نحو دينهم العظيم . وذلك بقوله : :

---

(١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال للقاضي الفيلسوف ابن رشد ص٧

(٢) ص ٨

(٣) القرآن والعلم للاستاذ احمد محمود سليمان ص٤ .

[أري ابحاثي المتعلقة بالدين الاسلامي والمدنية الاسلامية التي قدمتها الى العالم الاوربي حتى هذا اليوم سوف تضؤل قيمتها وتميز مادتها بعد ان تنكشف امامي معاني القرآن الكريم ، مترجمة ترجمة صحيحة فأفهم منها خمسة اضعاف ما فهمته الى اليوم ، بل اراني على ثقة بأن سوف تنكشف بهذه الترجمة اسرار للقرآن الذي ما قرأناه الا عربياً تبطل كل باطل تبجح به فلاسفة العصور الغابرة والحاضرة ، ويستقبل الاسلام عطفاً جديداً وعاماً من كافة المحافل العلمية في اميركا واوربا ، وربما كان لهذا العطف معنى آخر ومرام اوسع لا احب التوغل فيها الآن رغماً عن كوني المس هذه الحقيقة لمس اليد .

[أنا درست اللغة العربية درساً كافياً ، واصبحت ملماً بها كأحد ابنائها ، بل زدت على الكثيرين منهم بأنني درست هذه اللغة الكريمة الواسعة من النواحي العلمية والاشتقاقية ، ومع ذلك فانني كلما اردت سبر غور معاني القرآن ورموزه الساحرة ومراميه الفلسفية العالية اقف حائراً لا افقه شيئاً ، وإنما اشعر بانني تجاه تعاليم سامية وحكم لا هوتية بليغة وتشريع محكم عجيب وعدل أخاذ . . .

[الحق انني لم أعد أعرف نفسي إذا كنت لم ازل مسيحياً ، أم ان تعاليم القرآن الساحرة واشعة النور التي تنبثق من وراء الأكمة التي يرقد عند سفحها (محمد العظيم) والتي استولت على كل مشاعري واضاء الظلمة التي اتيه في دجورها ، قد حولتني عن دين آبائي واجدادي ، ولكن اذا صح بأنني ما برحت مسيحياً فيكون ذلك جلداً ومكابرة ، بل اعترافا مني بأنني ما برحت جاهلاً حقيقة الاسلام .

[القرآن كزورق النجاة يطفو على وجه الخضم حاملاً ٤٠٠ مليون مؤمن بينهم ٣٦٠ مليوناً ما فهموا لاهم ولا اباؤهم وجدادهم شيئاً من معانيه العربية الفصحى لأنهم اعجميون . . . ومع ذلك ما برحوا يتطون غارب هذا الزورق السحري بتهالك الغريق وقد هدد بالغرق . فانظر إذا إلى القدرة والجاذبية الكامنتين في طيات هذا الكتاب الالهي !!

[ليت شعري لو ترجم القرآن الى لغات هؤلاء المؤمنين الاعجميين وتفهموا ما احتوى من معان خلابة وقواعد نزيهة وتشريع انفرد من بين جميع الشرائع السماوية بقوة أحكامه وتعاليمه الانسانية البليغة ألا يتضاعف إيمانهم وتتكون منهم كتلة مؤمنة لو انقضت بعامل قوة هذا الايمان على الجبال لدكت شواهقها وعلى الجحافل لبددت صفوفها ؟

[إن العرب أنفسهم لم يتفهموا القرآن كما يجب ان يفهم ، ما خلا فئة منهم ظهرت في إبان

نزوله أي على عهد محمد ﷺ ومن بعد وفاته بقليل . فرأيناها تمشي بقوة إيمانها على سطح اليم وفوق الاثير ، على الارض وفي الهواء فاتحة مكافحة حتى خفقت راياتها فوق ارجاء العالم بأسره . ويوم نسي العرب ، او جهلوا معاني هذا السفر الساحر تلاشوا واضمحلوا ... لذا فاني اصفق استحساناً لجماعه الازهر لتعويلهم على ترجمة القرآن وابارك لهم في مسعاهم الجليل الذي اتمنى ان يسرعوا في إنجازه قبل ان تطرأ عليه عوامل المد والجزر فيتلاشى من اساسه شأن كل مشروع إصلاحي في الشرق] اهـ (١) .

وهذا ليوبولد فايس العالم النمسوي (أو محمد أسعد كما سمي نفسه بعد إسلامه) يقول : (إن الاسلام من وجهته الروحية والاجتماعية لايزال ، بالرغم من جميع العقبات التي خلفها تأخر المسلمين ، أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر ..) (٢)

وهذه العليمة جرترود هايدن المختصة بدراسة أصول اللغات الشرقية وآدابها بجامعة فينا قد أرسلت إلى العليم محمد طلعة طه الرئيس العام للاتحاد الاسلامي العالمي خطاباً بينت فيه اعتناقها الاسلام بعد دراسة مستفيضة أقنعتها بأنه العلاج الحاسم لمتاعب الانسانية في كل زمان ومكان وانه يستطيع أن يفتح بلادها وبلاد أوربا إذا أحسن شرحه والتعريف به ، وأنها كرست أوقات فراغها بهذا الواجب بالمحاضرات في الأوساط الجامعية والندوات الثقافية ، وهي تهيب بولاة الأمور في الدول الاسلامية وبرجال الأزهر أن يعنوا بانشاء معاهد وإرساليات في عواصم أوربا لنشره وإنقاذها من الالحاد والمادية ... (٣)

ونريد بهذه المناسبة أن نذكر بأن القرآن الذي هو الأصل في هذه الدعوة الى العناية بالدين كتاب عربي مبين يمكن أن يتدبره كل من عرف العربية وأسرارها وملابساتها فقد (نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه)(٤) و (يعلمون ظواهره وأحكامها)(٥) وتوقف العربي أحياناً لمعرفة معنى الأب

---

(١) مجلة التمدن الاسلامي م ٢ ج ١ ص ١٨ نقلاً عن كل شيء (il toutto) الايطالية .

(٢) الاسلام على مفترق الطرق لمريب العليم عمر فروخ ص ١٣

(٣) التمدن الاسلامي م ١٥ ج ١٩ و ٢٠ نقلاً عن الشبان المسلمين م ٢٠ باختصار .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٧

(٥) إرشاد القاصد لمحمد بن إبراهيم بن ساعد الانصاري ص ٥٧ .

والفسلين ... [1] إنما توقف تلقاء (معنى إفرادي لايقدح عدم العلم به في علم المعنى التركيبي في الآية [2] (ولم يعرف المسلمون أن القرآن تسدل بينهم وبينه الحجب ، وتحول بينهم وبينه الأسداف ، إلا حين توزعت كلمتهم ، وتفرقت أهواؤهم ، وتنازعوا أمرهم ، وصاروا يخدمون به المآرب ، ويناصرون على حسابه الشهوات ، وكل يجد ضالته المنشودة ، ورغبته المأمولة ، وسلكوا به في سبيل ذلك طريقاً عوجاء ، بعنوان المجاز والكناية ، أو الاجمال والتفصيل ، والعموم والخصوص ، واتخذوا من هذا وهذا ميداناً للمناضلة الممقوتة ، والتعصب المرذول ، وبلغ الحال ببعض من أهل الحرف والصناعات أن يجعلوا من كتاب الله الكريم ميداناً لعلومهم التي يدرسونها ، وفنونهم التي تخصصوا فيها ، وصارت جماعة تفسير ، تغلب عليه نزعتها ، وتظهر فيه ميزتها ، وانتهت القحة بفريق سموا أنفسهم المتصوفين . إلى أن يقولوا : إن لكلام الله ظاهراً وباطناً . وكان مثل هذا الكلام سبباً من أسباب ترتيب بعض الناس أحكاماً وتكاليف على ما يسمي ظاهراً وباطناً وجعلهم الأمة فيما يختص بالتزام الاوامر طبقات وشيعاً وأحزاباً ، وهو أشبه بما كنا نسمعه في المسيحية القديمة وغيرها من الاديان التي تطرقت إليها أيدي اللاعبين من القساوسة الذين جعلوا العقائد تجارة واحتكاراً ، ليس من حق غيرهم أن يعرفها ، أو يقف على أسرارها ، ليكون لهم وحدهم حق التحريم والتحليل ، والنهي والأمر ، والترغيب والترهيب .) [3]

ولا شك أنه يرجى من دراسة الدين دراسة محكمة وإحلاله محله من التقدير والاحترام نهضة ليست دينية فحسب ، ولكنها علمية وأدبية واجتماعية وسياسية واقتصادية ... وما كان الاسلام في يوم من الايام دين مسجد فحسب ولكنه دائماً دين عبادة وقيادة عامة شاملة لا يدع سلطانه جانباً من جوانب الحياة إلا ويعدل فيه حكمه ، وتتبين فيه آثاره النافعة .

* * *

قد يكون من الخير بعد هذا أن تجعل دراسة الفلسفة الاسلامية تابعة أول أمرها لدراسة الاسلام فاذا وقفنا على فلسفته درسنا بعدها ما نشاء . ذلك لان (الفلسفة الاسلامية الحقة لا تلتمس

---

(١) الاتقان للسيوطي ص ١١٥

(٢) الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي ص ٥٤

(٣) الازهر م ٢٠ ج ٩ ص ٨٥٠ و ٨٥١ من مقال للاستاذ الشيخ إبراهيم علي أبو خشب .

عند ابن سينا أو ابن رشد وأمثالهما ممن يطلق عليهم فلاسفة الاسلام ؛ ففلسفة هؤلاء إنما هي ظلال للفلسفة الاغريقية لا علاقة لها في الحقيقة بفلسفة الاسلام) (١) .

وللاسلام فلسفته الاصلية الكاملة تلتمس في أصوله النظرية في القرآن والحديث . وفي سيرة رسوله وسننه العملية . وهذه الاصول حسب أي باحث متعمق ليدرك فكرة الاسلام الكلية التي يصدر عنها في كل تعاليمه وتشريعاته ، وعباداته ومعاملاته .

وقد تناول الاسلام طبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوقات ، وطبيعة العلاقة بين الانسان والكون والحياة ، وطبيعة العلاقة بين الانسان ونفسه ، وبين الفرد والجماعة وبين الجماعات الانسانية كافة ، وبين الجيل والاجيال . ورد ذلك كله إلى فكرة كلية جامعة ملحوظة الخطوط في سائر الفروع والتفصيلات . . . وتلك هي فلسفة الاسلام) (٢) .

فأين نحن بعد هذا من الاعتماد على الفكر الاوربي وحده في التعليل دون أن نعرف براهيننا على وجهة نظر الاسلام التي ندعي الايمان بها (فاذا ما تكونت في نفوس الطلاب وافكارهم أسس وطيدة لروح الاسلام وفكرته عن الكون والحياة والانسان ، والخير والشر ، والعمل والجزاء . . . إلى آخر مباحث العقيدة الاسلامية الخالصة في الميدان الفلسفي . . . أخذنا في السنوات الاخيرة من الدراسات الجامعية نقدم لطلاب الفلسفة المتخصصين ، زاد الفلسفة الاغريقية وانعكاساتها في الفلسفة الاسلامية ، وزاد الفلسفات الاوربية والامريكية الحديثة ،

---

(١) قلت : قد يكون في رأي الاستاذ سيد قطب شيء من الغلو فليس فلاسفتنا على وفاق دائم والفلسفة اليونانية ، وأظهر المخالفين لها الغزالي . ولكن رأي الاستاذ قطب صحيح إلى حد بعيد ، ولذلك يقول الاستاذ الفرد جيوم (إن المسلمين لم يلبثوا كثيراً راضين بترك خصومهم مستأثرين كل الاستئثار بأساليب الجدل المنطقي الاغريقي ، فأخذوا يتعودون تدريج اسلوب التفكير الذي كان معروفاً في كتابات الاغريق والسوريين) - تراث الاسلام ص ٢٤٨ - ويقول رينان Renan ما معناه : (إن الحركة الفلسفية الحقيقية الاسلام ينبغي التفتيش عليها في مذاهب المتكلمين) للعلم العوا L'esprit Critique des Trères de la pureté) P. X III نقلاً عن Averroès et l'overroïsme 3 éd P. 89) وهؤلاء المتكلمون تسلحوا بعد بسلاح خصومهم .

(٢) العدالة الاجتماعية في الاسلام للاستاذ سيد قطب ص ٢٢

مع المقارنات والمقارنات في كل مرحلة بينها وبين الاسلام ، ضامنين إلى حدٍّ ما أن لا تؤثر في شعورهم ووجدانهم ، وأن تقتصر آثارها على أفكارهم واذهانهم بعد استعدادهم للجدل والمناقشة ، ورد ما لا يوافق طريقة التفكير الاصلية لقوم مسلمين . عندئذ لا تضر المعرفة بل تفيد لانها تصبح معرفة عقلية مبرأة من التأثير الوجداني في الضمير وفي تصور الحياة والشعور بها والسلوك فيها إلى حد كبير) (١) .

٢ ــ وشبيه بما قلناه عن الدين ما نقوله عن التاريخ الاسلامي ، وإذا كانت حرمته العلمية (رسمياً) اقوى بقليل من حرمة الدروس الدينية ، فهو على كل حال دون ما ينبغي تقديراً وإجلالا واستفادة ، وحسبنا ان نذكر ان نصيب الدراسات الثانوية والعالية منه قليل جدا بالنسبة إلى دراسات التاريخ غير الاسلامي . ومن يعلم مثلاً حق العلم ماهو من اقرب وأوجب ما ينبغي معرفته ، كاتجاه تاريخنا في صدر الاسلام بعد هجرة الرسول الكريم سياسياً واجتماعياً وحربياً ، معرفة تحليلية علمية تعرض فيها الخطط وتلمس الثمرات وتحقق الرغبات ؟(٢).

ولعل اشد خطر نشأ عن طغيان التاريخ الغربي طغيان العقلية الغربية حتى في التاريخ العربي وجعل التاريخ الغربي وسياسته محور السياسات الحديثة العربية والاسلامية ، وموقف الدول العربية من عرض الهدنتين في قضية فلسطين على الرغم من انتصارات العرب من اكبر البراهين القريبة . ولتخليط الغربيين في التاريخ العربي امثال كثير في كتبهم وصحفهم :

قال الامير شكيب أرسلان رحمه الله في مثل هذه المناسبة (ونرجو أن لا يطالبنا القارئ بالامثال فانها مما لا تسعه المجلدات ، بل كل كتاب كتبه الافرنج عن الشرق يصح ان يكون مثالاً بدون استثناء ــ لا يكاد يصل عالمه بحادثة أو حادثتين أو ثلاث حتى يجعل منها قاعدة ويبني على ذلك حكماً ويسجله إسجالاً ويرحي بعد ذلك عنان تصوراته حتى لا تعرف نفسك أفي منام أنت ام في يقظة . انظر إلى تآليفهم عن الشرق والشرقيين سواء في السياحة أو في التاريخ أو في الجغرافية أو غير ذلك ، وتأمل فيها ، وقارن بينه وبين الواقع الذي تعلمه أنت علم اليقين وتلمسه كل يوم بيدك وتنظره بعينك وتسمعه بأذنك ولا تقدر أن تكابر فيه إلا

---

(١) العدالة الاجتماعية في الاسلام ص ٢٤٢

(٢) راجع الحياة السياسية والاجتماعية في المدينة المنورة للاديب عبد الحليم محمد احمد .

إذا كنت ممن يكابر في المحسوس ، وانظر البون الشاسع بين ما تقرأه من كلامهم وما هو بين يديك لتقضي العجب العجاب ...

حتى أن رنان نفسه وهو من أكبر فلاسفتهم ومن أعلمهم بعلوم الشرق وبلغات الشرق وبفلسفة الشرق ، وقد زار بنفسه الشرق واقام بسورية مدةً من الزمن تجد له خلطاً عجيباً عن الشرق وأحكاماً خيالية ، وقد وجد من ردّ عليه وأثبت خلطه ونشر ردّه باللغة الافرنسية ولكن شهرة رنان العظيمة غطتْ على تلك الفضائح . وإن من غريب التصادف أني بينما أنا أحرر هذه الأسطر اطلعت لرنان على جملة واردة في كتابه « الاناجيل » يقول فيها ما يأتي أنقله بنصه :

(*Ali, chez les Schiïtes, est devenu un personnage totalement mytologique. ses fils Hassan et Hossein sont des personnages reels, le mythe se greffe frequemment sur une biographie historique*)

وترجمة ذلك :

ان علياً أصبح عند الشيعيين شخصاً أسطورياً تماماً ، أما ولداه الحسن والحسين فانهما شخصان حقيقيان . فالأسطورة تلقح في الغالب على ترجمة حياة تاريخية ...

فاذا كان رنان وهو من العبقرية الأفذاذ الذين لم تنجب مثلهم أوربة إلا في الأعصر والقرون ، وممن درسوا علوم الشرق أكثر من كل أوربي آخر يخلط هذا الخلط ويخبص هذا الخبص ، فما ظنك بمن ليس بعبقري وليس بفيلسوف ، ومن ليس نسيج وحده في قومه ومن ليس بواقف حق الوقوف على علوم الشرقيين ؟

ومن غريب التصادف أيضاً أنني بينما أحرر هذه السطور تناولت عدد أمس (٩ نوفمبر ١٩٢٨) من جريدة الطان وهي كبرى جرائد فرنسة كما لا يخفى ، فوجدتها تقول في فصل عن الحزب الراديكالي :

Le groupe se tient, tire entre deux forces contraires, comme le tombeau de Mahomet dans l'espace, immobile

ومعناه : (يبقى الحزب تحت تجاذب قوتين متضادتين أشبه بقبر محمد ساكن في الفضاء) .

فمن قال إن قبر محمد ﷺ (ساكن في الفضاء) ! ومن ادعى ذلك من المسلمين ؟..
ومرة قرأت في هذه الجريدة خبراً عن الحُجاج يقول فيه : (الذين يذهبون إلى مكة لزيارة قبر محمد) !

ولا عجب في ذلك فجميعهم لا يفرقون بين مكة والمدينة . وإذا أردنا أن نحصي في أوربة الذين يعرفون أن قبر محمد ﷺ هو في المدينة لا في مكة ، فربما من الستمائة مليون نسمة الذين تأهل بهم أوربة يوجد ألف شخص .. (١)

ولعل بعض التنكر للتاريخ الاسلامي ناشيء عن جهله وتصديق ما كتبه عنه الغربيون الذين يجهلونه لا الذين يقدرونه أمثال الاستاذ هرنشو Hearnshavv ولنسمع إليه يقول : (نجد المسعودي العربي (؟ — ٩٥٦) يعرض في كتابه « مروج الذهب » عرض خبير ماهر تاريخ وإثنغرافية غرب آسيا وشمال أفريقية وشرق أوربا . ونجد ابن خلكان الدمشقي (١٢١١ - ١٢٨٢) يصنف معجماً (٢) في التراجم التاريخية جديراً بأن يقرن إلى « تراجم فلوطرخ » . ثم نجد شيخ مؤرخي العرب عبد الرحمن بن خلدون التونسي (٣) (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) قد كتب فيما كتب مقدمة لتاريخ عام بلغت من سمة الاحاطة وصحة النظر وعمق الفلسفة ما جعلها مصداقاً لما قال الاستاذ فلنت في حق ذلك العالم التونسي الكبير من أنه « واضع علم التاريخ » .

انتقل أثر هذه الثقافة العربية إلى أوربا النصرانية من طريق مدارس الاندلس وجنوب إيطاليا ، فكان من العوامل القوية في انتهاء العصور الوسطى وانبثاق فجر العصور الحديثة) (٤)

(١) مقدمة النقد التحليلي للأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، للمرحوم الأمير شكيب أرسلان ، صفحة ط ، ي ، يا ، باختصار حذف .

(١) وقد بلغ من نفاسته تأليفاً وموضوعاً أن وجد بعد ستمائة سنة من وضعه أهلاً للترجمة إلى الانكليزية . انظر : Ibn Khallikan's Biographical Dictionary (1871 — 1842) M. Slane. 4 Vols.

(٢) راجع الفصل النفيس الذي عقده ر . فلنت لابن خلدون وتاريخه في كتاب « تاريخ فلسفة التاريخ » (١٨٩٣) ص ١٥٧ - ١٧١

(٤) علم التاريخ للاستاذ هرنشو ترجمة الاستاذ عبد الحميد العبادي ص ٣١ - ٣٣

٣ ـ وخير من التاريخ عناية (رسمية) حال اللغة والادب ، فنصيبهما في المناهج الرسمية نصيب وافر ، وموضعها من التقدير موضع مرموق .

ولكن الذي يغيظ من عرف أسرارها تدريسهما أحياناً ممن سلكوا طريقة أساتذتهم الغربيين دون أن يكون تذوقهم لها سليماً وأن تكون صلتهم قوية بهما من قبل أو من بعد ، وشتان بين من يطرح العلم طرحاً ومن يذوقه ويذوّقه (وإن من أحمق الحمق أن يظن أن مرغليوث لكونه أفرنجياً صار يميز الشعر الموضوع على لسان الجاهلية من الشعر الجاهلي الاصلي ، وأنه صار يظهر له فيها ما يخفى على مثل سيبويه والخليل والفراء والاخفش والمبرد وابن دريد وأبي علي الفارسي وابن جني والزمخشري وأقرانهم ممن لا يحصيهم عدد ولا يحويهم بلد ، وهم جهابذة العربية وصيارف اللغة الذين يعرفون في لحظة صحيحها من بهرجها وأصيلها من هجينها ، واذا تليت عليهم القصيدة عرفوا من نسجها من أول بيت فيها وذلك لشدة مرانهم هذا الامر ولكونهم وقفوا أنفسهم على خدمة هذه اللغة وأنفقوا جواهر أرواحهم من المهود الى اللحود في تنقادها ، وانهم قوم عاشوا بها وماتوا عليها ونخلوها وعجنوهـــا وطبخوها وجعلوها قوتهم الدائم فامتزجت بلحمهم ودمهم وتمثلت فيهم ، وكادت كل جارحة من جوارحهم تنقل آثارها ، وكل شاعرة من شواعرهم تحمل شعارها ، فكيف يقدر مستشرق أوربي ، نسبته إلى هؤلاء نسبة عربي تعلم الانكليزي الى شكسبير أن يدعى كونه فهم من لغة العرب مالم يفهموه ، وانتبه فيها الى ماغفلوا عنه ، وأنه عرف الدخيل من الاصيل[1]

إن المخدوعين بالغربي لو أنصفوا لذكروا أن (كل علم له أربابه الذين هم أدرى به وان راعي الضأن لأدرى من أرسطاطاليس في صنعته ...)[2]

* * *

ولا ننس من العناية بعد هذه العلوم والفنون الاسلامية[3]، فان فيها كثيراً مما يفضل الفن

---

(١) النقد التحليلي ـ المقدمة : ص و

(٢) النقد التحليل المقدمة ص هـ

(٣) انظر ما كتبناه عنها وعن صناعاتنا الفنية في (حضارتنا) ص ٢٧٣ ـ ٣١٨ ومن المراجع التي وقفنا عليها بعد : تاريخ المساجد الأثرية تأليف الأستاذ حسن عبد الوهاب مفتش الآثار العربية ، طبع مصر عام ١٩٤٦ ، ولتصفح نماذج القاشاني الجميلة وغيرها Islamic pottery A study nanlly Historical طبع لندن عام ١٩٢٦ ولنماذج الأواني والخشب المحفور وغيرها Catalogue du Musée Arabe طبع القاهرة ١٩٣٢

الغربي حتى يوم الناس هذا ، وبرامج المعارف لا تكاد تعنى بهذه الفنون العناية اللازمة ، فالفن الغربي وتاريخه طاغ في الرسم والموسيقا ، لولا توجيه قليل من الأساتذة الذين وقفوا على الفن العربي وقدروه قدره ، فوجهوا في الخط ووجهوا في الرسم والموسيقا ، ولفتوا الأنظار إلى صناعاتنا الفنية التي لا يزال الغرب يقدرها تقديراً عظيماً . ولا يزال الشرق يحتقرها احتقاراً أليما .

ولا جرم أن لبقاء الطابع الفني الإسلامي على جانب كبير من مظاهر حياتنا منافع قومية واقتصادية كثيرة . حسبنا أن ذكرنا بها الآن تذكيرا

* * *

لعلنا أصبحنا على يقين بعد هذا بضرورة زيادة المحافظة على ما يجب بقاؤه والأخذ به من تراثنا الثقافي ديناً وتاريخاً ولغة وأدباً ، مع الالتفات إلى فنوننا الجميلة ، والسعي لنساهم في العلوم المادية حتى يكون لنا فيها رأي أصيل وأثر جليل ليسا لنا فيها الآن .

* * *

فاذا انتقلنا من وزارة المعارف إلى غيرها من الوزارات رأينا من اللازم أن تأخذ كل منها بنصيبها من واجب العناية بذلك ، ولا سيما وزارة العدلية التي يجب أن تمهد للعمل بما أنزل الله حكماً وتشريعاً . ووزارة الشؤون الاجتماعية التي تستطيع أن توجه التوجيه الصحيح نحو مكارمنا التي لا غنى لنا ولا غنى للعالم عنها (ونحن نملك ان نقدم للبشرية هذه الفكرة التي تهدف إلى تعاون إنساني كامل ، وإلى تكافل اجتماعي صحيح ، وترمي إلى رفع قيمة الحياة إلى المستوى اللائق بعالم يصدر عن الله ! ومكاننا إذن ليس في ذيل القافلة ولكن في مأخذ الزمام) (١).

(في عالم الاقتصاد : لا يلجأ الانسان إلى الاستدانة وله رصيد مذخور ، قبل أن يراجع رصيده ، فيرى إن كان فيه غناء ؛ ولا تلجأ الدولة إلى الاستيراد قبل أن تراجع خزائنها ، وتنظر في خاماتها ومقدرتها . . أفلا يقوم رصيد الروح ، وزاد الفكر ، ووراثات القلب والضمير ، كما تقوم السلع والأموال في حياة الناس ؟

بلى ! ولكننا . . . لا نراجع رصيدنا الروحي ، وتراثنا الفكري ، قبل أن نفكر في استيراد المبادئ والخطط ، واستعارة النظم والشرائع ، من خلف السهوب ومن وراء البحار !

إننا ننظر فنرى واقعاً اجتماعياً سيئاً غاية السوء ، ونبصر فنرى أوضاعاً اجتماعية لا تمت إلى العدالة بسبب . . . عندئذ نتجه بأبصارنا إلى أوربا وأمريكا وروسيا ، نستجلب منها الحلول لمشكلاتنا ، كما نستورد منها السلع لمعاشنا . غير أننا عند استيراد السلع نراجع أرصدتنا

(١) العدالة الاجتماعية في الاسلام ص ٢٦٦

القديمة ؛ ونحصي موجوداتنا في السوق ؛ وننظر في قدرتنا على الانتاج . فأما عند استيراد المبادئ والنظم والقوانين ، فلا نضع شيئاً من هـــذا كله ، ولا نتحرج أن نلقي بكل تراثنا الروحي ، وكل مقوماتنا الفكرية ، وكل الحلول التي يمكن أن يتيحها لنا النظر فيما لدينا من أسس ومبادئ ونظريات ، لنستجلب المبادئ الديمقراطية ، أو الاشتراكية ، أو الشيوعية فنكل إليها حل مشكلاتنا الاجتماعية ، مهما اختلفت اوضاعنا ، وظروفنا وتاريخنا ، ومقومات حياتنا : المادية والفكرية والروحية ، عن ظروف القوم فيما وراء البحار ، وفيما خلف السهوب ..!

ونحن في الوقت ذاته نتخذ الاسلام ديناً رسمياً للدولة ، ونزعم فيما بيننا وبين أنفسنا أننا مسلمون ، إن لم نزعم أننا حماة الاسلام ودعاته ! ولكننا نقصي هذا الدين من حياتنا العملية ليبقى في عزلة وجدانية ، لا يحكم الحياة ولا يصرف شؤونها ولا يعالج مشكلاتها ...) [1]

(وعلينا ... أن نوازن بين المزايا التي نجنيها من العودة الى النظام الاسلامي ، والجهود والتضحيات التي ينبغي أن نبذلها لتحقيقه ؛ فاذا بلغ بنا الايمان بتلك المزايا الى الحـد الذي تهون فيه هذه التضحيات ، فلنبرم أمرنا ولنعتزم ، ولنتوكل على الله .

ولعله من المصادفات ذات القيمة في هذا المجال ، أن نشير الى أن الحضارة الغربية الراهنة قد قادت العالم الى حربين شاملتين خلال ربع قرن ؛ كما قادته بعد الحرب الثانية الى انقسام كامل بين الكتلتين الشرقية والغربية ، والى تهديد دائم بحرب ثالثة ، والى اضطرابات في كل مكان ، والى جوع وعرى وبؤس في ثلاثة أرباع المعمورة . وأن النظام العالمي كله اليوم في حالة تخلخل واضطراب وبحث عن أسس جديدة وتنقيب عن زاد روحي يرد الى الانسانية ثقتها بالمبادئ الانسانية [2]) .

ويبدو ذلك في دعوات بعض المفكرين المنصفين ومنهم برناردشو البحاثة الانكليزي العالم قال : (لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوربا غداً ، وهو قد بدا يكون مقبولاً لديها اليوم . . لقد عمد رجال الاكليروس في العصور الوسطى الى تصوير الاسلام في أحلك الألوان ، وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم . والواقع أنهم كانوا يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه ويعدونه خصماً للمسيح .

أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الانسانية ؛ وأعتقد أن رجلاً مثله إذا تولى زعامة

---

(١) العدالة ص ٥ و ٦ (٢) ص ٢٣٠

العالم الحديث نجح في حل مشكلاته، وأحل في العالم السلام والسعادة. وما أشد حاجة العالم اليها !

لقد أدرك مفكرون منصفون قاموا في القرن التاسع عشر ، مالدين محمد من قيمة ذاتية. من هؤلاء كارليل ، وجوته ، وجيبون . بذلك حدث تحول صالح في موقف أوربا من الاسلام. وقد تقدمت أوربا تقدماً كبيراً في هذا القرن المتمم العشرين ، فبدأت تحب عقيدة محمد . ولعلها تذهب في القرن التالي الى أبعد من ذلك فتعترف بجدوى هذه العقيدة لحل مشاكلها ... وقد دان كثيرون من قومي ومن أهل أوربا بدين محمد في الحاضر ، وهذا يجعلنا قادرين على أن نقول : إن تحول أوربا الى الاسلام قد بدأ) (١)

ولكن ماعسى أن تعمل أوربا إذا تخلى عن المحراب الامام ؟ ومن المسئول إذا تخلينا عن القيادة الروحية ونحن ورثة الهداية وحماة الدعوة ؟ ومن المسئول عن ضلالنا وضلالها وشقائنا وشقائها إذا لم نأخذ بأيديها نحن ونسير الى سعادتنا وسعادتها ؟

مايمنع الامم العربية الاسلامية التي حظيت باستقلالها أواستطاعت العمل وهي تجاهد في سبيله أن تسائل نفسها: هل يعزني الله بالفيزياء والكيمياء فحسب... وبالمعاهر والمقامر... أم لابد مع قوة المادة من قوة الروح بعيدة عن الضلال والفساد؟ وان تسائل نفسها لتعرف ماتعمل: اين انا من الاسلام ومن ثقافة الاسلام ومن مجد الاسلام ومن عز الاسلام ، ثم تسائل نفسها عما يجب ان تعمل حتى تجدد مجدها وتوفي على قصدها غير مصبورة في سواها ولا مقهورة من هواها ؟

اللهم إن السبيل بينة والحجة قائمة ! ألا هل بلغت، اللهم فاشهد . (فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون اهواءهم ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لايهدي القوم الظالمين) (٢)

* * *

وقد سرنا انا قرأنا في جريدة (الرأي العام (٣)) بعض العلاج النظري في نشرة تمهيدية اذاعتها الجمعية الخلدونية (٤) بينت فيها اعمال مؤتمر الثقافة الاسلامية الذي دعت إلى انعقاده في تونس يوم ١٨ من ذي القعدة ١٣٦٨ (١٠ ايلول ١٩٤٩) بحضور ممثلي الجامعات والمعاهد والمدارس والجماعات المشتركة فيه ، ولجانه هي : الشرعية ، الحضارة ، الأدب ، التاريخ ، الثقافة ، حاضر الاسلام ، البيروني .

(١) مجلة نور الاسلام م ١ ص ٥٧٢

(٢) سورة القصص .

(٣) تصدر عن الدار البيضاء، اقرأ العدد ١١٦

(٤) عنوانها : ٦٧ نهج سوق العطارين بتونس .

والغاية منه :

ا ـــ تحقيق المعلومات الكاشفة عن ناحية من نواحي المعارف الراجعة الى الفنون المتعلقة بالاسلام .

ب ـــ وضع الخطط التوجيهية لخدمة التراث الثقافي الاسلامي بالتنظيم والاصلاح والبعث والابراز .

ولم ندر ماذا كان من أمر هذا المؤتمر الذي تدل فكرة الدعوة اليه على شعور حميد لتحقيق عمل مجد ما أحوجنا اليه .

١٣٦٨/١٢/٣٠ هـ .

١٩٤٩/١٠/٢٢ م .

مسرد البحوث

١ **الثقافة العربية قبل الاسلام :**

١ حال البدويين

١ حضارة الحضريين

٢ تنقيب المنقبين

٣ المؤرخون المسلمون وما قبل الاسلام

٧ **الثقافة العربية في صدر الاسلام :**

٧ صور الدعوة العلمية

٩ المعلمون من الصحابة

١٠ المسجد موطن التعليم

١٢ **نمو الثقافة الاسلامية وازدهارها :**

١٢ نشاط الصحابة العلمي

١٣ طريقة الملازمة

١٣ مكافحة الامية

١٤ الثقافة في العصر الاموي

١٥ نشاط الترجمة في العصر العباسي

١٦ مصادر النهضة العلمية

١٦ انشاء المدارس

١٨ ومضة من تأثير الثقافة العربية

٢٠ كتبنا في جامعات الغرب

٢١ هزيمة العرب يصحبها خسارة الحضارة

٢٢ **مظاهر الطريقة العلمية :**

٢٢ اعلام الشرق والغرب

٢٢ فضل المتقدمين

٢٣ التفكير والابداع والروح العلمية والتجربة

٢٥ أثر الاسلام في الحركة العلمية

٢٧ الخلفاء أعوان للعلم

٢٨ اثر البيئة

٢٩ نماذج من التقدم العلمي

٣٢ الطريقة العلمية في العلوم

٣٣ النظر في متن الحديث

٣٥ رواية اللغة

٣٨ الغزالي وابن الهيثم وتحقيقهما

٤٤ **ثروتنا العلمية وفهارسها :**

٤٤ ومضات من ثروتنا العلمية

٤٦ مصائب الكتب

٥٢ فهارس الكتب العربية في الشرق

٧٢ فهارس المخطوطات

٨٣ **الثقافة العربية والنهضة وآثارها :**

٨٣ مراكز الثقافة العربية بعد نكبتها

٨٤ النهضة العلمية وبعض آثارها

٨٦ ما يؤخذ على النهضة

٨٧ الدين والعلم

٩٢ الفلسفة الاسلامية

٩٤ التاريخ الاسلامي وطغيان التاريخ الغربي

٩٧ اللغة والأدب

٩٧ الفنون الاسلامية

٩٨ التوجيه العام

١٠٠ مؤتمر الثقافة الاسلامية

١٠٣ **مصادر الكتاب**

مصادر الكتاب

القرآن الكريم . صحيح الامام البخاري . صحيح الامام مسلم . مسند بن شيبة الكبير والأوسط – للطبراني . الطبقات الكبرى – لابن سعد . سنن ابن ماجة الاستيعاب لابن عبد البر . مشكل الصحيحين – لابن الجوزي . مجمع الزوائد – للحافظ الهيثمي . المغنى عن الحفظ والكتاب فيما لم يصح فيه شيء من الأحاديث – لابن بدر الموصلي . قواعد التحديث – لجمال الدين القاسمي . حسن الأثر في التعريف برجال الأثر – لأمين سرور . الاتقان – للسيوطي . ارشاد القاصد – لابن ساعد الانصاري . معجم الادباء – لياقوت . الفهرست – لابن النديم . الموافقات – للشاطبي . التبيين – لابن عساكر . طبقات الشافعية للسبكي . طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعه . كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي . فتوح البلدان – للبلاذري . مقدمة التاريخ – لابن خلدون . تاريخ ابن خلدون – لابن خلدون . الفتوحات الاسلامية – لابن دحلان . الحوادث الجامعة لابن الفوطي . عجائب المقدور في أخبار تيمور – لابن عربشاه . مسالك الابصار – لابن فضل الله العمري . الملل والاهواء والنحل – لابن حزم . الكتاب والوزراء – للجهشياري . نقد النثر – لقدامة ابن جعفر . فصل المقال – لابن رشد . المنقذ من الضلال – للغزالي . الاقتصاد في الاعتقاد – للغزالي . موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول – لابن تيمية . بلوغ الارب – لمحمود شكري الآلوسي . التراتيب الادارية – لعبد الحي الكتاني . حاضر العالم الاسلامي – لشكيب ارسلان . حضارة العرب – لغوستاف لوبون . خطط الشام لمحمد كردعلي الاسلام والحضارة العربية – له أيضاً . فجر الاسلام – لاحمد أمين . ضحى الاسلام – له أيضاً . تراث الاسلام – لألفردجيوم وزملائه . عبقرية الاسلام – لمنير العجلاني . مضر الاسلامية – لمحمد عبد الله عنان . العدالة الاجتماعية في الاسلام – لسيد قطب . حضارتنا – لاحمد مظهر العظمة . الاسلام على مفترق الطرق – ليوبولدفايس . تاريخ الفكر العربي – لاسماعيل مظهر . عبقرية العرب في العلم والفلسفة – لعمر فروخ . تاريخ الشعوب الاسلامية – لبروكلمان . الفاطميون – لحسن ابراهيم حسن . معالم الحضارات

– لانور الرفاعي وشاكر مصطفى . الحضارة الاموية العربية – لعمر أبي النصر . تاريخ المساجد الأثرية – لحسين عبد الوهاب . التاريخ العام – ترجمة رشيد بقدونس . علم التاريخ – لهرنشو (تعريب العبادي) . تاريخ آداب العرب – للرافعي . المفصل في تاريخ الادب العربي – لاحمد الاسكندري وزملائه . المدخل في تاريخ الادب العربي – للأثري . في أصول الادب – للزيات الاعلام – للزركلي . معجم المطبوعات العربية والغربية – ليوسف سركيس . دليل الاعارب – لاسعد داغر . علم المنطق الحديث – لمحمد حسن عبد الرزاق النقد التحليلي – لمحمد احمد الغمراوي . حياة صلاح الدين – لاحمد بيلي . الحياة السياسية في المدينة المنورة – لعبد الحليم محمد أحمد . بين الدين والعلم – لاندروديكسون وايت (تعريب اسماعيل مظهر) . مجلة الامالي المجلد ١ و ٦ . مجلة الازهر المجلد ٢٠ مجلة التمدن الاسلامي المجلد ٢ ، ٥ ، ٨ ، ١٥ . الشبان المسلمين المجلد ٢٠ . الضاد المجلد ٨ . الفتح المجلد ١٧ ، ١٩ . المجمع العلمي العربي المجلد ٢٠ . ملحق السياسية ٣ صفر ١٣٥٢ . المستمع العربي المجلد ٢ . نور الاسلام المجلد ١ . الهداية الاسلامية المجلد ١٤ . جريدة الرأي العام (الدار البيضاء) م ٣ ع ١٠٦ . مراجع فرنجية قليلة أشرنا اليها في مواضعها . وكتب لأساتذة وسادة آخرين قد نكون غفلنا عن ذكرها مع تأثرنا ببعض مافيها .

370.956:A99tA:c.1
العظمة ،احمد مظهر
الثقافة العربية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01022465

American University of Beirut

370.956
A99tA

General Library

370.956
A99tA